المقاومة في جبال الونشريس وحوض الشلف وجبال الظهرة ضد الاستعمار الفرنسي

40-1864 م

د· يحيى بوعزيز
جامعة وهران

الموقع الجغرافى للمنطقة :

تقع هذه المنطقة فى القسم الغربى من بلاد الجزائر ، وتمتد هوامشها الشرقية الى القسم الوسط من البلاد ، وتشرف فى الشمال على البحر المتوسط، وفى الجنوب على اقليم الهضاب العليا · وتتألف من أقاليم جغرافية متباينة من حيث التضاريس ، والمناخ ، والنباتات ، والامكانيات الاقتصادية ·

ـ ففى الشمال على البحر تقع كتلة (جبال زكار والظهرة) ، وتمتد فى شكل مستطيل من الشرق الى الغرب ، يمثل شرقها جبال زكار ، وغربها جبال الظهرة ، ويحدها من الجنوب حوض الشلف · معدل ارتفاعها 1579 م عن سطح البحر · وتغطيها أشجار البحر المتوسط المخضرة ، والمتنوعة ، وتتخللها حقول الكروم ، وكل الاشجار المثمرة خاصة الكرز · وترفع نسبة الرطوبة فيها غالبا بسبب مجاورتها للبحر ·

ـ والى الجنوب من جبال زكار والظهرة ، يقع حوض الشلف الرسوبى الذى يمتد على طول 200 كلم تقريبا ما بين مليانة شرقا · وغليزان غربا · وقد تكون هذا الحوض من رواسب المجارى المائية التى تنزل اليه من مرتفعات جبال زكار والظهرة شمالا ، ومرتفعات جبال الونشريس جنوبا ، والاطلسين : التيطرى ، والبليدى شرقا · ويمثل هذا الحوض منطقة زراعية ممتازة حاليا بتنوع مزروعاته ، واعتماده على السقي ، والوسائل العصرية المختلفة ·

والى جنوب حوض الشلف تقع كتلة جبال الونشريس التى تمتد من الاطلسين : التيطرى ، والبليدى شرقا، الى جبال بنى شقران ، وفرندة غربا · وتجاورها فى الجنوب هضبة السرسو ، ذات الاهمية الاقتصادية فى الميدان الفلاحى · ويحوط مجرى واد الطويل، والشلف ، بشرق وشمال الونشريس ، بينما يفصلها واد مينا عن جبال بنى شقران ، وفرندة غربا · وتكاد منابع واد الطويل ، ومينا ، تلتقى فى جنوبها لتحكم عليها الحصار تماما · متوسط

ارتفاع جبال الونشريس 1985 م عن سطح البحر . وتقطعها أودية كثيرة تمثل روافد هامة لواد الشلف . وتظهر عليها آثار التعرية المائية كثيرا خاصة فى سفوحها الشمالية .

مناخها قارى ، شديد البرودة ، كثير الثلوج فى الشتاء ، شديد الحرارة ، والجفاف فى الصيف . امكانياتها الاقتصادية ، الفلاحية ، والحيوانية ضعيفة . وتمثل فتحة تيارت وسيلة الاتصال المهمة بين شمال البلاد ، وجنوبها ، عبر السفوح الغربية للونشريس ، على طول مجرى واد مينا .

وقد شهدت هذه المنطقة الواسعة ، أحداثا هامة خلال الاحتلال الفرنسى فى القرن التاسع عشر ، وخاض السكان معارك كثيرة ضد التوسع الاستعمارى، ونشبت ثورات عديدة من بينها : ثورة الشريف بومعزة ، وثورة فليتة ، وثورة بنى مناصر . وسنتعرض لها فى هذه الدراسة حسبما يسمح بها الوقت .

أ ـ مقاومة فليتة عام 1843 :

كانت مناطق الونشريس ، وحوض الشلف ، وجبال زكار والظهرة : تابعة للامير عبد القادر . فمليانة بجبال زكار عاصمة لاحدى ولاياته ، ومركزا لصناعاته الحربية . وتاكدمت بجوار تيارت فى سفوح الونشريس الجنوبية الغربية ، قلعة من قلاعه ومراكزه الحربية الهامة ، كما ان المدية فى شرق الونشريس عاصمة لاحدى ولاياته الاخرى كذلك .

وفى أواخر عام 1842 تفقد الامير مناطق فليتة ، وأقام لدى أولاد خسير، والصبيحات ، وبنى أوراغ ، وبنى مسلم ، وكانت الحرب شديدة بينه وبين الفرنسيين بقيادة الجنرال بيجو . فشن الجنرال جنتل Gentil والكولونيل لاباسى ، هجوما ضده فى مطلع شهر جانفى 1843 انطلاقا من مدينة مستغانم، وسلطوا على سكان بلحاسل ، وأعالى جديوية ، وتويزة ، وواد عمور ، أسلوب السلب ، والحرق ، والتخريب ، وسلبوا ما وجدوه من الحبوب فى آبار بنى مسلم . واضطر الامير عبد القادر الى الانتقال الى جبال الظهرة لمعاقبة سكان مازونة ، وقائدها الذين تضامنوا مع قوات جيش الاحتلال . ومنهم بن عبد الله ، وقدور بن المخفى .

وقد جند الامير عبد القادر حوالى 500 فارسا ،وألف خيال من سكان الظهرة ، وتمكن من تحقيق الانتصار على الاعداء ، والسيطرة على كل مناطق الظهرة ، ما عدا مازونة ، واستمالة كل السكان الى حركته .

وكعادة الفرنسيين فانهم قاموا بتهديم وتخريب منازل بنى زروال ، وقطع أشجار ثمارهم ، ليحرموهم من مصادر عيشهم . وحصلت يوم 12 مارس 1843 معركة كبيرة حول ضريح سيدى

3

لكحل بالظهرة قتل وجرح خلالها عدد كبير من الطرفين ، وسلب الفرنسيون قطعان بنى زروال ، وخربوا لهم حقولهم ومزارعهم ، وقبضوا على عدد من نسائهم واطفالهم ، وسلبوا لهم 400 رأس بقر، و 3000 رأس غنم· ودامت العمليات العسكرية بالمنطقة حوالى سبعين يوما (1) ·

وخلال الغزو الفرنسى لهذه المنطقة فى اطار محاربة الامير عبد القادر ، ظهر الثائر محمد بن عبد الله الملقب ببومعزة الذى دامت حركته حوالى أربع سنوات ·

ب ـ ثورة الشريف محمد بن عبد الله (بومعزة) 1844 ـ 1847 م

ينتسب محمد بن عبد الله بن وداح بن عبد الله ، الى أولاد خويدم فى حوض الشلف · واصله من تارودانت بجنوب المغرب الاقصى ، هاجر أجداده الاوائل فى وقت مبكر الى المغرب الاوسط ، واستقروا لدى أولاد يونس فى جبال الونشريس ·

وقد ارتبط منذ صغره بالطريقة الطيبية الدرقاوية التى نشأت بالمغرب الاقصى ، وانتشرت بالجزائر كذلك (2) · وشب فى وسط دينى ، تحت كفالة امرأة أرملة متدينة يعتقد فيها الناس الولاية والصلاح · ومال الى حياة الزهد ، والتقشف ، واعتمد فى حياته على الصدقات التى كان الناس يقدمونها لتلك الارملة التى آوته رغم انه كان متزوجا ، وله أب ، وأخ ، وأخوان (3) ·

اشتهر بالذكاء والفطنة ، والانقطاع عن الناس ، والتفرغ للعبادة ، ولبس الرثة والمقطعة ، ولم يكن يقاسمه وحدته سوى معزة ، وقيل غزالة ، اهتم بتربيتها ، ويصحبها معه أينما ذهب مما جعل الناس يخلعون عليه لقب « بومعزة » ·

وقد أثار بوحدته وتزهده ، أنظار الناس ، فاعتبروه شريفا ، وعمت شهرته كل مناطق جبال الظهرة ، وحوض الشلف ، وجبال الونشريس · فحفزه ذلك على اظهار ما كان يكنه فى ضميره، ودعوة الناس الى الثورة وحمل السلاح ضد الفرنسيين المحتلين · فأعلن للارملة التى كان يقيم عندها ، أن وقت العمل قد وصل ، وحان الوقت ليغادرها ، ويعلن الثورة ضد المسيحيين على أساس أنه : « صاحب الساعة » و « المهدى المنتظر » ، الذى أرسله الله ، والسلطان العثمانى لتخليص البلاد من الاعداء ·

وخلال نشاطه الدعائى والثورى عام 1844 ، اضطر الماريشال بيجو : Bugeaud الى تجنيد عدد كبير من القوات لمحاربته

(1) Un ancien officier de l'Armée du Rhin : Le général Lapasset. (Paris - 2e édition, 1899), t. I, p. 10 - 18.
(2) Henri Garrot : Histoire général de l'Algérie. (Paris, 1910), p. 864 - 866.
(3) Lapasset : Ibid, p. 25.

بقيادة الجنرال بورجوللى : Bourjolly
والجنرال ريفو : Reveu والكولونيل
سانت ارنو : Saint-Arnaud والكولونيل
لادميرولت : Ladmirault والكولونيل
بيليسى : Pelissier.

وبعد أن تأكد بومعزة من انتشار سمعته ومكانته لدى الناس ، وآنس فى نفسه القدرة على حمل السلاح ، وقيادة الناس الى الثورة، غادر منزل سيدته، وولية نعمته ، الارملة المتدينة ، فى شهر مارس 1845 ، وقطع واد عبدى ، واتجه الى السواحلية فرع قبيلة أولاد يونس ، ونزل لدى الحاج حامد اليونسى ، صاحب السمعة والمكانة بالمنطقة ، وقدم له نفسه باسم محمد بن عبد الله « صاحب الساعة » و « المهدى المنتظر » • وأوضح له بأنه اختاره دون غيره يتعاون معه على طرد الفرنسيين • ففرح به الحاج حامد ، وقدم له البسة جديدة تليق بمقامه كشريف ومبعوث من الله • وأقام له ضيفة وحفلة تعارف جمع اليها وجهاء المنطقة ، حدثهم خلالها بومعزة ، عن أهدافه ، وأكد لهم بأن الله قد اختاره ليتم على يده طرد الفرنسيين • وادعى لهم بان رصاص الاعداء لا يؤثر فيه • وأنه سيهاجم مدينة الاصنام ، وكل المزارع التى يمتلكها الاوروبيون •

امتدت دعاية بومعزة ، وانتشرت بسرعة فى اقليم الظهرة ، والشلف ، والونشريس ، بفضل المراسلات الواسعة، والمكثفة التى قام بها بواسطة أتباعه ، وانصاره • ومال البسطاء الى تصديق دعواه بأنه مبعوث من الرسول ، والسلطان العثمانى ، لانقاذ البلاد من الاعداء الفرنسيين المسيحيين • غير انهم اختلفوا فى أصله • البعض كان يعتقد أنه من أشراف فليتة • والبعض يرى أنه من المغرب الاقصى • والبعض الآخر يرون انه قدم من مكة تصديقا لدعواه بأنه مبعوث من الله ، والرسول، والسلطان • ولسنا ندرى كيف لم يتجرأ أحد لسؤاله عن أصله •

وقد زوده السكان بالاموال ، والاسلحة والذخائر ، والبغال ، والاحمرة ، وصنع له بعض الوجهاء علما للجهاد من الحرير ، وأعطاه آخر حصانا ليركبه وينتقل بواسطته • وقام هو بتنظيم أتباعه وانصاره • فعين الكتاب ، وجباة الاموال ، والشواش ، والجنود ، والفرسان • والآغوات • وخصص لآغوات العسكر مرتبا شهريا بمبلغ 10 دورو ، ولآغوات الخيالة 15 دورو • واتخذ لنفسه كاتبا خاصا يدعى سى الصادق (4) •

أول مواجهة بينه وبين الفرنسيين :

وبعد كل هذه الاستعدادات ، غادر بومعزة أولاد يونس ، وعسكر ، على واد أوخلال قرب قبة سيدى عيسى بن داود

(4) Lapasset : Ibid., p. 87.

على حدود منطقة الاصنام ، ومنطقة مستغانم . وشن غارة ليلية على قائد مديونة الحاج الصادق الذى كان معارضا له ،وتمكن من قتله ، فعاد الى معسكره . وفى يوم 14 أبريل 1845 اتجه الى عرش الصبيحات فى الشلف ، وخرجت من الاصنام قوات فرنسية لاعتراضه بقيادة سانت ارنو ، وتمكنت من التعرف على مكانه بواسطة وشاية رجلين من جنود قائد الصبيحات ، فتوقفت فى وادى راس . وواد أوهارن .

وقد توقف بومعزة فى كرونانسة ، احدى فروع عرش الصبيحات المجاورين لسهل قرى . وهناك جرت معركة بينه وبين القوات الفرنسية عرفت بمعركة قرى ، فى عين مران ، وذلك يوم 14 أبريل نفسه . فقد فيها بومعزة حوالى ستين رجلا ، وأسر له حوالى 15 آخرين أعدمهم الفرنسيون فى الحين لارهاب السكان حتى يتخلوا عنه .

وعلى اثر هذه المعركة التى لم تكن فى صالحه انسحب بومعزة الى مازونة وأخذ من هناك يوجه الرسائل الى الناس يحثهم على الجهاد ، ويشرح لهم موقف خصومه الذين حاربوه مع الفرنسيين أمثال الحاج بلقاسم واتباعه . واستقبله المزونيون بحفاوة ، وجندوا له 300 رجلا ليحاربوا معه ، فلاحقه سانت ارنو بقواته الى هناك وعسكر أمام مازونة يوم 15 أبريل ثم انتقل يوم 17 الى سيدى عيسى بن داود حيث لحقت به قوات أخرى قدمت من تنس (5) .

تجند مع بومعزة عدد كبير من أخواله فرسان أولاد عبد الله فرع أولاد بوهنى بزعامة القائد محمد بن هنى ، وأخذوا يحثون الناس على حمل السلاح ، وعندما حاول الضابط الفرنسى بياتريكس : Beatrix رئيس المكتب العربى لمدينة تنس ، أن يعترض سبيلهم ، فى غابة واد ريحان هاجموه وقتلوه وحزوا رأسه ، ويديه ، وحملوها الى الجهات الجبلية ليشجعوا الناس على حمل السلاح وذلك يوم 20 أبريل 1845 .

وكان بومعزة قد خاض يوم 18 أبريل معركة كبيرة ضد القوات الفرنسية فى منطقة بعن مع ثوار أولاد يونس الذين حاصروا فرقتين فرنسيتين . ولم ينج القائد كانروبير Canrobert الا بصعوبة . واستغل بومعزة فرصة هذا الانتصار فكانت أولاد حيجه شرق تنس ، ووجه اليهم مبعوثين ليحفزوهم الى الثورة وحمل السلاح . فاستقبلهم القائد محمد بن هنى بحفاوة ، واستجاب بنو حجا لنداء الثورة ، كما استجاب سكان مناطق جبال الظهرة الذين اغتالوا بياتريكس . كذلك ، وهاجموا جميعا معسكر المضايق بحوالى 500 رجل ، وجددوا الهجوم عليه يوم 22 أبريل ، واقتربوا من المدينة

---

(5) Paul Azan : L'Emir Abdelkader, 1808 - 1883. (Paris, 1925), p.

وقتلوا خلال المعركة ضابط الهندسة الحربية الفرنسى (6) .

وفى يوم 23 أبريل تعرض الثوار لقافلة فرنسية فى طريقها من تنس الى الاصنام ، وذلك فى واد علال ، وخاضوا ضدها معركة دامت يوما كاملا ، وحاصر فريق آخر من الثوار مدينة تنس ، وقطعوا الطريق بينها وبين الاصنام ، واضطر سانت ارنو أن يخطر الجنرال بورجللى ، بخطورة الوضع ، وثورة سكان 22 قرية جبلية ، بين تنس ، وبعل ، وعلى رأسهم بنو حجا ، وبنو حوه . وامتداد الثورة الى آغوية الزاتيمة ، وبنى مناصر بشرشال ، ومتيجة حتى أحواز مدينة الجزائر العاصمة ، مما جعل وضع الفرنسيين خطيرا (7) .

ويذكر بول أزان ، بأنه ظهر بومعزة آخر خلال شهر أبريل 1845 لدى بنى مناصر بشرشال ، ولكن الفرنسيين اعتقلوه واعدموه أمام الناس . كما ظهر ثائر آخر يدعى محمد بن عبد الله من بنى زقزق سلم نفسه للفرنسيين بمليانة ، وهو من أصل مغربى وشقيق للاول (8) . ويظهر أن اللذين يتحدث عنهما أزان . هما بومعزة نفسه الذى لم يعتقل الا عام 1847 .

مجازر بيليسى فى جبال الظهرة :

دخل بومعزة الى حوض الشلف ، وانضم اليه كل سكان الصبيحات ، على ضفتى الوادى بزعامة القائد محمد بن هنى ، وراسله سكان جنوب مدينة الاصنام ، وأمدوه بالرجال المسلحين ، واضطر الفرنسيون ان يحصنوا مدينة الاصنام ويحيطوها بالخنادق ، ويضاعفوا من الحراسة ، وتدعيم الدفاع حولها . وقد حاول بومعزة مرات عديدة أن يحكم الحصار عليها ودامت مناوشاته للمحاصرين داخلها حوالى ثلاثة أشهر .

وأمام خطورة ثورة بومعزة توجه الجنرال بيجو بنفسه الى جبال الظهرة ووصل اليها يوم 9 ماي وبقى بالمنطقة الى يوم 12 جوان 1845 ، وشارك بنفسه فى المعارك ومواجهة الثوار .

وقد ارتكب بيليسى حماقة كبيرة ضد سكان أولاد رياح الثائرين الذين اعتصموا فى المغاور الجبلية بعد أن داهمتهم القوات الفرنسية ، ورفضوا الاستسلام لها . وكان عددهم حوالى 500 شخصا . فأشعل النيران فى أفواه المغارات وماتوا جميعا من جراء الحرق ، والاختناق بالدخان (9) .

---

(6) Lapasset : Ibid., p. 24 - 25.
(7) Azan : p. 204 - 205.
(8) Azan : p. 217 - 219.

(9) عن المجازر التى ارتكبها بيليسى انظر : يحيى بوعزيز : بطل الكفاح الامير عبد القادر الجزائرى (تونس ـ 1957) ص 219 ـ 221 . وكذلك :

وكان بومعزة فى بداية أمره قويا ، وخاض عددا من المعارك غير فاصلة ، ولكن النتائج كانت ضعيفة ، وتسببت فى الخلل ، والفشل ، بين أنصـــاره وأتباعه ٠ ولم يستطع أن يفرض ارادته على السكان ، رغم محاولاته المتعددة لتطبيق أسلوب الامير عبد القادر فى ارغام الناس على الحـرب ، ودفـع الاموال ٠ وكان من ضمن العقبات التى اعترضته وحالت دون نجاح حركتـه ، معارضة آغا الونشريس أحمد بـن الشاوش ، وآغا الصبيحات محمد بـن عبد الله ، ومحاربتهما له بتأييد ودعـم من القوات الفرنسية ٠

فقد اعترض أحمـد بن الشـاوش طريقه عند بنى تيغْريرين ، بينما كـان يحاول الانسحاب الى الجنوب ، وافتك منه أمتعته ، وقتل له عددا من الرجال ٠ غير أن آغا الونشريس سرعان ما دفـع حياته ثمنا لعمله هذا ٠ فقد اعترضـه بومعزة يوم 16 جويلية فى واد مروى قرب مازونة ، بينما كان يسير فى موكب عرس ابنته ، وانقض عليه وقتله هو وعدد من أفراد الموكب ، وسلب ما كان معهم من الامتعة والاثاث وحول موكب العرس الى مأتم ٠ فى نفس الليلة حاول بومعزة أيضا أن يعترض سبيل آغـا الصبيحات محمد بن عبد الله الذى كان يقوم بجمع أموال الزكاوات للسلطات الفرنسية ٠ وانتهى الامر بمقتله كذلك ٠ وبهذه الكيفية صفى بومعزة حسابه مع هذين الخصمين اللذين سببا له مشاكل وعقبات كثيرة ٠

وبعد هذه الاحداث انسحب بومعـزة الى مواطن فليتة ، واعتصم هناك ، حيث ظهر شريف آخر يدعى مولاي محمد ، دعا الناس الى الثورة التى امتدت الى كل المنطقة المحصورة بين واد ملويـة غربا ، وجبال الاوراس شرقا (10) ٠

وفى أوائل شهر نوفمبر 1845 ، اتجه بومعزة الى تنس ، وهاجم فى الطريـق أعوان الفرنسيين ، وحث الناس عـلى حمل السلاح والثورة ، وأقام عند بنى مدوح بعض الوقت ، ثم اتجه الى غرب تنس ، لدى سكان الشارير ، واقنعهـم على حمل السلاح ، وأحرق بعض مشاتى المعارضين ٠ وفى يوم 10 نوفمبر عسكر فى المغارات التى أحرق بها بيليسى 500 شخصا فى العام الفارط ٠ ثم اتجه الى شرق تنس ، وأثار الناس هناك ، وأخذ طريقه الى الاصنام لمهاجمتها مرة ثانية ٠

وفى أواخر شهر جانفى 1846 خاض بومعزة معركة كبيرة فى واد سيـدى سالم ، قتل له خلالها حوالى 150 رجلا ،

— Garrot : p. 865.
— Détails authentiques sur l'affreux drame dont les grottes des Ouled Rian ont été le théâtre. (La sentinelle de l'armée, 1845), p. 228.
— Busquet (R.) : L'affaire des grottes du Dahra (19 - 20 juin 1845). (Alger, 1908), 52 p.
— Gautier (E.F.) : Une visite aux grottes du Dahra. (Revue de Paris - R.P. 1914), t. III, p. 729 - 758.
(10) Charles Richard : Etude sur l'insurrection du Dahra, 1845 - 1846. (Alger, 1846). p. 10-20.

بينهم الآغا ولد دربال ، وبن هني زعيم بني حيجا ، وقتل للفرنسيين عدد من الرجال كذلك ، فانتقل الى حوض واد سيدى ابراهيم على الضفة اليمنى وعسكر بها ، وخاض عددا من المعارك ، وفقد عددا من الاسلحة ، والامتعة ، والحيوانات ·

وخلال شهر فيفرى خاض المديونيون معارك ضارية ضد القوات الفرنسية التى كان يقودها لاباسى ، وكاتروبير ، فى أحواز تنس ، ومازونة ، بالظهرة · وفى شهر ابريل اتجه بيليسى بقواته الى سفوح جبال الظهرة ، والتحقت به قوات تنس ، وقاموا بغزو قرى المنطقة، وخاض السكان ضدهم معارك وحروبا، واشترك بيجو نفسه فى هذه المعارك بالونشريس ، وحوض الشلف (11) ·

وقد تعضدت حركة بومعزة بعودة الامير عبد القادر من جديد الى الجزائر من المغرب الاقصى ، فانضم اليه ، واتجها الى جبال جرجرة ، واشتركا مع الخليفة أحمد بن الطيب بن سالم خليفة عبد القادر فى مقاومة الفرنسيين (12) غير أن بومعزة سرعان ما اختلف مع الامير عبد القادر ، وانفصل عنه فى أكتوبر 1846 ، والتحق بسكان بنى سناسن ، وبنى سنوس ، فى منطقة الحدود المغربية ، وعمل على دفعهم الى الثورة ، وحمل السلاح ، ومن هناك انتقل الى أطراف الصحراء عبر فليتة ، وعضده فى حركته زعيم فليتة ، ابن جلول ، جند له معظم سكان فليتة · والظهرة ، وجبل ديرا بمنطقة سور الغزلان · وامتدت الثورة الى أولاد نايل ، وأولاد جلال ·

نهاية بومعزة :

وازاء خطورة الوضع على الفرنسيين، وجه الحاكم العام الفرنسى قوات كبيرة الى منطقة الحوادث ، بقيادة مارى ـ مونج Marey-Monge والجنرال هيربيون Herbillon. وخاض الثوار ضدهما معارك كثيرة فى جهات واد مينا بحوض الشلف خلال شهرى جانفى وفيفرى 1847 ، وعجز بومعزة على مواجهة العدو الذى تفوق عليه فى العدد والعدة ، فانسحب الى جبال الظهرة ومن ورائه مارى مونج ، الذى طبق حرب الابادة الشاملة فى أولاد نايل قبل ذلك عقابا لهم على تأييد الثورة وتدعيم الثوار ، وبومعزة ·

وفى أوائل شهر مارس 1847 ، واجه بومعزة قوات مونج ، وهيربيون فى معركة كبيرة بمنطقة ثنية الاحد فى قلب جبال الونشريس التى انتقل اليها ، وغرر به بعض الناس فاعتقلوه وسلموه الى الضابط الفرنسى سانت ارنو ، فوجهه يوم 13 مارس 1847 الى الجزائر العاصمة ، ومن هناك سفره بيجو الى

---

(11) Lapasset : p. 23 - 35.
(12) Azan : p. 219.

طولون ، ونقل من هناك الى بـــاريس ووضع فى المعتقل ، وأخذ من هـــناك براسس أخاه عمر ، وأباه عبد اللــه ، وصهره مصطفى بن زيدان ، والآغـــا التلى من أولاد نايل ، ومعزوز من أولاد ساعد بأولاد نايل ، وذلك عن طريـــق الضابط لاباسى · يطلب منهـم جميعـا أن يسعوا لجمع أفراد عائلته واسكانهم فى مدينة تنس تحت رعاية الضابط لاباسى رئيس المكتب العربى بها (13) ·

واثناء وجوده فى المعتقل فر واتجــه الى مرسى بريست الحربى مشيا عـلى الاقدام ولكنه اعتقل فى الطريق وأعيـد الى السجن فى قلعة هام الى أن أطلــق نابوليون الثالث سراحه بعد اطــلاق سراح الامير عبد القادر عام 1852 فسافر الى الآستانة وتطوع فى الجيش العثمانى خلال حروب القرم ، ثم اتجه الى العراق وأقام فى بغداد مدة ثم عاد الى باطوح وبقى بها حتى عام 1878 ، ثم انتقـــل الى دمشق وجاور الامير عبـد القادر مدة ، وبعد ذلك اتجه الى شمال افريقيا مرة أخرى وحاول أن يحيى حركـــة الثورة والجهاد · فلم يوفق ، وعـــاد الى باطوح وبقى هناك حتى توفى فى دبروجه بمرض الكوليرا (14) ·

وفى شهر أبريل 1848 ثار بنـــو حساين ، وريغـة ، جنوب الجـزائـــر العاصمة ، وامتدت ثورتهـم الى أولاد نايل ، والتيطرى ، وسور الغـزلان · وثار بنو زقزق ، وبنو مناد فى المديـنة ومليانة · وتعاون الجنرال مونج حاكم المدية ، والجنرال كامو حاكم مليانـة على محاربتهم ، واستعملوا أســـلوب الحرق والتخريب والقتل الـجمـاعى ، والتشريد (15) ·

جـ ـ ثورة سكان فليتة عام 1864

فى الوقت الـذى اندلعت فيـه ثورة أولاد سيدى الشيخ فى ربيع عام 1864 ، وانتشرت جنوب الجزائر العاصمـــة، وفى الغرب الوهرانى ، ثار سكان فليتة بجبال الونشريس ، وحوض الشلف ، بزعامة الشيخ المتصـــوف سى الازرق بلحاج ، الـــذى ينتسب الى الطريقـــة القادريـــة ·

---

(13) كان لبومعزة أب أعمى يدعى وداح بن عبد الله ، وأم تدعى عيشـة بنـت بوهنى . وأخ اسمه بن عبد الله أكبر منه يعيش مع أمـــه لدى أولاد خويدح ، وأخ آخر اسمه عمر ، سنه 16 عاما يعيش مـع معزوز البقراى فى ولاد ساعد بن سالـم ، بأولاد نايل ، وزوجة اسمها مريم بنت مصطفى بن زيان قاضى أولاد يونس ، وعم اسمه قادة بن عيسى قائد بنى بوخنوس ، وعم آخر اسمه بوخيرة بن التريكى كان قائد فى عهد الاتراك ، والامير عبد القادر لدى بنى بوخنوس · انظر : لاباسى ص 94 — 95 ·

(14) الامير محمد : تحفة الزائر فى مآثر الامير عبد القادر وأخبار الجزائر · (الاسكندرية ــ 1903) ج 1 · ص 296 — 297 و 313 — 314 ·

(15) (15) Garrot : p. 865 et 883 - 884.

وقد عدد الجنرال لاباسى أسباب ثورة فليتة على الشكل التالى :

أولا : اضطراب العقول ،ونظـــام البلاد ، وتقلبات الانظمة ٠

ثانيـا : اضطراب وضع المكاتـب العربية ، وضعف الحكام ٠

ثالثا : تعيين قواد جدد أجانـب عن السكـان ٠

رابعـا : ديموقراطية الشعب العربى

خامسـا : كثرة الحركات الدينيـة القوية فى كل البلاد الاسلامية ووقوفهـا ضد عوامل التحديث والتطور ٠

سادسا : اخلاء الجزائر من معظم القوات العسكرية الـتى أرسـلت الى أوروبا وأمريكا للحرب ، وادعى لاباسى كذلك فى رسالته الى الجنرال فلورى : Fleury بأن سياسة اللين التى كـان يتبعها الامبراطور نابوليون الثالث تجاه الجزائريين ، هي السبـب فى ثـورة سى الازرق وغيره ٠ كمـا ان مبعوثى تركيا السريين الذين ينشطون فى الدعاية بطرابلس الغرب ، وتونس ، وتغاضى باي تونس عن نشاطهم ونشاط غيرهـم من الدعاة والممونين للثورة ، كـان سببا أيضا فى هذه الثورة ولكنه أكـد فى النهاية أن العصبية الدينية ، وطبيعة العائلات الاوروستقراطية الجزائريـة ، هي السبب الحقيقى فى الثـورة ، وهي التى يجب أن تناقش ٠

وادعى لاباسى كذلك بأن سى الازرق بلحاج ، ادعى للناس خـلال صـلاة الجمعة بأن شيخهعبد القادر الجيلانى، هو الذى أوحى له بمحاربة الفرنسيين، الذين لا تؤثر أسلحتهم ورصاصهـم فيه (16) ٠ ويحـاول بهـذه الروايـة ، والادعاء ، أن ينال من زعماء المقاومـة الجزائرية ، ويصمـهم بالتـعصب ، والدروشة ، وذلك هو موقف معظـم الكتاب الفرنسيين فى القرن المـاضى ، ومطلع القرن الحالى تجاه المقاومـة الجزائرية ورجالها ٠

جند سى الازرق بلحاج عددا كبيرا من الانصار والاتباع ، وخاض يوم 27 ابريل 1864 ، معركة كبيرة فى خنقـة العازر ، ضد قوات الجنرال مارتينـو : Martineux وقتل له تسعة ضباط ، وثمانية وستين جنديا ، وجرح له تسعة وثلاثين ٠ بينما قتل من الثوار ما يقرب من 400 شخصا حسب رواية لابـاسى نفسه (17) ٠

وخلال ليلتى 12 و 13 ماي 1864 هاجم الثوار وسى لزرق ، قوات لابـاسى فى المناطق الموجودة بين واد مينا ، وواد رهيو ، وميثاقسا ، وكان بمعية لاباسى الآغا الحاج جلول ، وابناه : بلعاليا ، وبلقاسم ٠ وكان عدد الثوار فى هذه المعارك 2000 خيالا ، و 500 فارسا ، فأخذوا ينادون بكلمات : الجهـاد ، الجهاد ٠ وحاصروا زمورة ، واضطر

(16) Lapasset : t. II, p. 1 - 8.
(17) Ibid. p. 8 - 15.

لاباسى أن ينسحب الى غليزان ، ويطلب نجدات جديدة ، وذخائر حربية ، وحصلت معارك ومناوشات ، وخربت معظم خيام ومنازل زمورة ، وغليزان ·

وبعد معارك زمورة ، وغليزان ، انسحب سى الازرق الى دواخل فليتة ، وأخذ يعمل على توسيع حركة الثورة ، وتنظيمها ، وتجنيد المزيد من الناس ، كما أخذ يخطط للهجوم على مركز الرحوية الفرنسى ، بينما أخذ الفرنسيون يحصنون مراكزهم فى عمى موسى ، وواد رهيو ، ومستغانم ، ونكمازيا : Nel:maria بالظهرة · واشتد فرار اليهود من غيليزان والقرى المجاورة لها الى مستغانم ، وشاع يوم 19 ماي بأن الثوار يسيطرون على هضبة تايموث فى أعالى مستغانم · واضطر اليهود الى الفرار الى ميناء المدينة (18) ·

جند سى لزرق سكان بنى مسلم ، واولاد صابر ، والشكالة ، والحلوية ، والكرايش ، ومد يده الى ثوار أولاد سيدى الشيخ الآخرين ، واصبحت قرية غيليزان ، مفتوحة أمام الثوار من كل جهة ، وارغم الاوروبيون على ايقاف الاعمال فى معسكر عمى موسى ، واخليت القرى الموجودة بين غيليزان وواد رهيو ، على طريق العاصمة ، وفر الاوروبيون كاليهود الى مستغانم ·

وتمكن سى الازرق من تخريب معسكر الرحوية يوم 20 ماي ، ومعسكر عمى موسى ، وواد رهيو ، واصل نشاطه حتى قتل فى معركة (ظهرة عبد الله) يوم 8 جوان 1864 أمام قوات الجنرال روز ، الذى كان مكلفا بملاحقته · (19) وخلفه فى منصبه سى عبد العزيز الذى سرعان ما سلم نفسه للفرنسيين فى زمورة يوم 25 جويلية من نفس العام نتيجة لاشتداد الضغط عليه وعدد أتباعه (20) ·

ورغم استسلام سى لزرق بلحاج ، وخليفته سى عبد العزيز ، فان أحداث الثورة استمرت فى فليتة ، وجبال الونشريس ، طوال سنوات ثورة سيدى الشيخ ولو بصورة متقطعة ، وشهدت المنطقة أحداثا وتقلبات كثيرة · وعاث الجيش الفرنسى فيها كثيرا ، وقتل ، وشرد ، وخرب ، ولكن السكان صمدوا ، وقاوموا وتحملوا ، وصبروا للمحن ، والحروب ، وسجلوا صفحات مشرقة فى تاريخ المنطقة ، وكفاحنا الوطنى ·

---

(18) Ibid. p. 18 - 22.
(19) Ibid. p. 23 - 35. et Charles Feraud : Le Sahara de Constantine. (Alger, 1887), p. 500.
(20) Trumelet : Notes. R.A. (1879), p. 247.

انتفاضة سكان بنى مناصر فى شرشال ومليانة ، 14 جويلية ـ 21 أوت 1871 :

أسباب الانتفاضة :

اجتمعت عدة أسباب ، وظروف ، لاندلاع هذه الانتفاضة ، معظمها يرجع الى سوء تصرفات السلطات الفرنسية تجاه السكان ، وممارستها سياسة التفرقة والتقسيم بينهم ، وضرب هذا بذاك .

فلقد كان هناك بمنطقة بنى مناصر عائلتان تتقاسمان النفوذ بينهما ، وهما :

ـ عائلة الغبرينى فى أحواز شرشال، وكانت موالية للفرنسيين منذ بداية الاحتلال ، وزعيمها فى هذه الفترة هو ابراهيم بن محمد السعيد الغبرينى ، قائد قواد سكان الزاتيمة الذى سبق له أن اشترك مع الفرنسيين فى محاربة مصطفى بومزراق باي التيطرى الأخير فى مطلع الاحتلال الفرنسى .

ـ وعائلة البركانى التى تنحدر من محمد البركانى صاحب الضريح المشهور بمليانة . وزعيمها فى هذه الفترة هو مالك البركانى بن الصحراوى البركانى ابن أخ محمد بن عيسى البركانى خليفة الامير عبد القادر سابقا على ولاية التيطرى بالمدية . وكان منفيا لمدة 14 عاما من عام 1842 الى 1856 ، وفى عام 1865 عينه الفرنسيون قائدا على بنى مناصر الشراقة بالمنطقة ، ولكن نفوذه ونفود عائلته استمر فى الانخفاض، والانهيار لصالح عائلة الغبرينى .

وقد ادعى لويس رين ، بأن البراكنة كانوا شعبيين أكثر من الغبرينيين ، وان محمد البركانى كان رئيسا دينيا ، وسياسيا ، لسكان منطقة شرشال ، ومنافسا كبيرا للمقرانى والرحمانيين (21) .أما ڤارو ، فقد ادعى بأن الفريقين معا كانا عدوين سياسيين ، ودينيين للمقرانى والرحمانيين معا (22) .

وهو ادعاء ينبغى أن يكون محل نظر، لان منطقة شرشال بعيدة عن منطقة المقرانى والحداد ، وثقل كل فريق يتركز فى منطقة معزولة عن الاخرى . غير أن العداء بين الغبرينيين ، والبراكنة ، ممكن نظرا للجوار بينهما . على ان ڤارو سرعان ما ناقض نفسه عندما ذكر بأن الرحمانيين عندما حاولوا دفع الفريقين الى الثورة يوم 30 أبريل 1871 ، عارض المولود الحبوشى الغبرينى الفكرة ، وتغاضى مالك البركانى عن الامر مما جعل المشاكل تعترض سير ادارته (23) . وأكد رين بأنه كان صديقا للفرنسيين وشارك فى محاربة بوبغلة ومطاردته (24) .

بوادر الانتفاضة :

فى يوم 30 أبريل 1871 كلف الفرنسيون البركانى ، والحبوشى ، باستخلاص ضرائب المكس فى سوق

(21) Louis Rinn : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie. (Alger, 1891), p. 508 - 513.
(22) Garrot : p. 973 - 975.
(23) Ibid.
(24) Rinn : Ibid.

المدينة ، فرفض الناس ذلك ، وقذفوهما بالحجارة ، وهذا مما يدل على أن التذمر كان موجودا ، وان تاثيرات ثـــورة المقرانى والحداد ، وصلت الى هـــذه المنطقة كذلك ٠

وفى يوم 6 ماي اجتمع شيوخ بـنى مناصر من صف مـالك البركـانى فى قبة أحمد بن يوسف قربسوق الحـد ، واتفقوا على قتل الحبوشى والتخلـص منه ، وفى اليوم الموالى قرر مجلـس بلدية شرشال ، اجراء تحقيق مـــع الحبوشى فقدم استقالته فى اليوم الموالى، احتجاجا على هذا الاجراء ، واتجـــه بعائلته الى قبيلة بنى فراح ٠ وكلف مالك البركانى بمنصبه لقدرته على السيطرة على بنى مناصر الغرابة ٠

وفى يوم 20 ماي قبـلت السلـطات الفرنسية استقالة المولود الحبوشى ، وعينت فى مكانه السعيـد الغـبرينى ، فتسبب ذلك فى غضب وهيجان بـــنى مناصر لعداوة قديمة بينهم ، وبين عائلة الغبرينى ٠ فكتبوا رسالـة الى الحاكـم العام الاميرال دو قيدون ، يوم 22 طلبوا منه فيها تعيين البركانى قائدا عليهـــم بدلا من الغبرينى ، فحول الحاكم العام رسالتهم الى حاكم مليانة العسـكـرى لاجراء تحقيق فى الامر يوم 30 جوان ٠

وخلال يومى 28 و 29 ، جوان ، اجتمع بنو مناصر لتدارس الامر وعزموا على اغتيال السعيد الغبرينى ، القائد الجديد، فى الوقت الذى كانت فيه لجنة التحقيق متجهة اليهم ٠ وأدت هــذه التطـورات كلها الى قيام الغبرينى بتقديم استقالته خوفا من مغبة الامر ٠ وقدم فارلو : Varloud رئيس المكتب العربى بشرشال الى تامزيت يوم 2 جويلية ليعلن للناس فى بنى مناصر ، بأن تعيين الغبرينى لم يبث فيه بعد ، ولم يصبح رسميا ، حتى يهدىء من خواطرهم ، وأكد لهم بأن هناك تفكيرا لدى السلطات فى تعييـن قائد جديد من غيـرالعائلتين المتناحرتين أصلا ، حسما للنزاع والخلاف ٠

وقد توالت الحوادث بعد هذا بسرعة، فكتب بنو مناصر رسالة ، يوم 4 جويلية، الى الحاكم العام ، رفضوا فيها تعييـن المولود عيدى قائدا عليهم ، وهو مـــن مواليد حفيان بقرية بنى حبيبة ، وطلبوا منه الحاق منطقتهم ببلدية شرشال ، اذا تعذر تعيين البركانى قائدا عليهم ٠ فتردد دو قيدون فى تنفيذ قرار تسمية عبدى قائدا عليهم ، نتيجة لهذه الرسالة (25) ٠

اندلاع الحوادث :

وهكذا ، كانت التصرفات السيئة ، للادارة الفرنسية ، من ضمن أسبـاب ثورة بنى مناصر ، وفى يوم 13 جويلية، اجتمع وجهاء بنى مناصر فى سوق الحد، واتفقوا على اعلان الجهاد والثـــورة ، والزحف فى اليوم الموالى على قـرى

(25) Rinn : Ibid., p. 513 - 519.

المنطقة مثل : نوفى ، وشرشال ، وزوريخ ، والزايتمة ، ولم يكن مالك البركانى حاضرا بهذا الاجتماع ، ولكنه كان على علم به ، وعلى صلة بالحوادث كما يدعى رين ٠وقام السعيد الغبرينى، وعيدى بن المولود ، بابلاغ السلطات فى شرشال ، أخبار هذا الاجتماع ، وما دار فيه ، وما اتفق عليه فيه ٠ وذلك فى اليوم الموالى لاندلاع الحوادث ٠

وقد ذكر رين بأن السلطات الفرنسية ، وجهت فى البداية التهمة لعائلة الغبرينى الدينية ، فى حين كان ينبغى توجيهها لعائلة البركانى، وفرنسا معا ، وذلك لان ابراهيم بن محمد السعيد الغبرينى قد تولى بنفسه ابلاغ الحاكم الاعلى الفرنسى ، وشيخ بلدية شرشال ، بالوضع المتدهور ، منذ يوم 13 جويلية ، فكيف توجه التهمة اذن لعائلته (26) ٠

اتفق الثوار علي تعيين مالك البركانى قائدا عليهم ولقبوه « آغا المجاهدين»، ووزعوا أنفسهم الى ثلاث فرق رئيسية :

– فرقة برئاسة البركانى نفسه وأخيه ابراهيم ، ومصطفى بن عبد الله مالك ، ومحمد أوجلول أوزهرة ٠ وتقرر أن تتجه لمهاجمة شرشال ٠

– وفرقة بنى مناصر الشراقة بقيادة على بن أحمد أوكرجوج ، صديق جماعة البركانى ، الذى كان من أكبر المحرضين للثورة ، ولعب دورا بارزا فى احداثها ٠ وتقرر أن تتجه لمهاجمة زوريخ ٠

– وفرقة ثالثة لبنى مناصر الغرابة، بقيادة أحمد أودادى ، ورؤساء الدواوير الاخرى ٠ وتقرر أن تتجه لمهاجمة نوفى ٠

اهتم مالك البركانى بتدعيم جبهته ، وحاول أن يضم اليه كل بنى مناصر الغرابة ، والشراقة الآخرين ، لكي يضيق الخناق على جماعة الغبرينى والحبوشى ، وعبدى ٠ فكاتب سكان المناطق المجاورة ، وأرسل عددا من المبعوثين ليحثوا على الثورة وحمل السلاح ، وتمكن من استمالة قدور بن مبارك المنادى فى القليعة ، الذى كان صديقا للامير عبد القادر ٠ واستمالة عبد القادر بن مختار من بنى فراح بمليانة الذين يعادون أولاد الخلادى المنحدرين من عائلة الشيخ أحمد بن يوسف بمليانة كذلك (27) ٠

وفى يوم 14 جويلية 1871 ، زحف الثوار فى الاتجاهات الثلاثة ، وفشل السعيد الغبرينى ، وأخوه ، فى منع سكان الزايتمة ، وقوراية ، وغيرهما من حمل السلاح ، واضطرا أن يفرا حتى ينجوا من سوء المصير ، بعد أن قطع الثوار كل الطرق والمسالك ٠

واعترض الثوار قافلة الضابط فارلو، على بعد 2 كلم من قرية نوفى ، واصطدموا

(26) Ibid., p. 513 - 508.
(27) Ibid., p. 527 - 519.

معها ، وفرضوا الحصار على القرية ، واعدوا كمينا للهجوم عليها •

وفى نفس اليوم هدد الثوار قرية حجوط ، واحرقوا نزل حمام ريغة ، ليلتى 16 و 17 جويلية • وقتلوا عددا من الحراس الاوروبيين ، مما اضطر السلطات الفرنسية أن تنجد المنطقة بقوات من القليعة بقيادة الكولونيل دوزاندرى : Desandre واصلت سيرها بعد ذلك من هناك الى ز ريغ •

أما البركانى فقد عسكر فى مزرعة المعمر تريبيى : Tripier قرب شرشال وأخذ يعمل على احكام الحصار حولها، وتجنيد المزيد من المقاتلين • وبسرعة انتشرت حركة الثوار لتشمل كل المنطقة من حجوط الى أحواز العاصمة• وقطع الثوار الجسر الذى يوصل الى زوريخ ليلة 16 من الشهر ، وأحرقوا معملا لعصر الزيتون بواد ملاح على بعد 35 كلم من شرشال • وهرب أوروبيو المنطقة الى تنس بمعية القائد الموالى لهم ، الحاج ابراهيم بلقاسم • وحاصر الثوار شرشال من جهة سيدى يحيى ، ومزرعة المعمر تاولى ، ولم ينقذها الا السفن الحربية التى كانت راسية بالميناء • وتم احراق المشاتى ، والمزارع الموجودة حولها •

وفى يوم 23 جويلية هاجم الثوار قرية بنيان ، وقتلوا عددا من الاوروبيين واحرقوا رحا للحبوب • وتعاون كل من الباشاغا بوعلام بن الشريف ، والآغا سليمان بن صياح ، والضابط قراد : Grad ضد الثوار فى حمام ريغة ، مع قوات قادمة من الجزائر العاصمة • وكتب مالك البركانى الى ابن صياح رسالة شرح له مؤامرات السعيد الغبرينى ، فحولها الى حاكم مليانة العسكرى •

وفى يوم 25 ، هاجم الثوار قافلة عسكرية قرب قرية زيوى ، وجرت معركة وادى بلاع فى مزرعة المعمر برانكور فى جبل الشنوة ، وقتلوا 31 ، وجرحوا عددا آخر من الاوروبيين • وفى ليلة 26 قطع الثوار الماء على مدينة شرشال ، وأحرقوا له بعض المزارع حولها ومنها مزرعة نيكولا •

وبسبب خطورة الوضع على الفرنسيين ، جندت السلطات الفرنسية قوات كبيرة برية ، وبحرية ، من كل الجهات : من مليانة ، والعاصمة ، ومن بجاية ، بزعامة الضابط بونسار : Ponsar ووجهتها الى المنطقة •

وأخذت طرادات : Laviso و Kleber و Desax فى قذف جموع الثوار ، وزحفت قوات أخرى من البر بقيادة بوكسى ، على قرية نوفى ، واستعادتها من الثوار بعد أن خربت تماما • واستعان بوسكى بقوات بحرية نقلتها الباخرة كليبير •

تعاونت هذه القوات كلها ضد الثوار ، وسقط مالك البركانى قتيلا يوم 2 أوت فى معركة قرب زوريخ ، على الطريق القديم المؤدى الى شرشال •

وكان مقتله ضربة قاسية لحركة الثورة باعتباره الزعيم البارز المدبر ، والمخطط لها ، ولم يستطع أخوه ابراهيم الذى خلفه أن يملأ الفراغ · وتمكنت القوات الفرنسية من استعادة قرية زوريخ من الثوار ، واتجه نيكو ، وبونسار ، الى زاوية البركانى فى ليانة وهدماها وجرت معارك أخرى يومى 6 و 7 أوت فى عين العنصر ، وفج محلى، وتواصلت المعارك بعد ذلك يومى 19 و 20 ، وهاجم الثوار قوات نيكو فى بنى زيوى (زورس) بقرية ايغيل أوزورو ، وتاحنوت ، وارغم ابراهيم البركانى على الاستسلام ، وخرب الفرنسيون معظم القرى والمداشر فى المنطقة ·

وفى يوم 21 أوت انتهت حوادث الثورة (28) ، وطبقت السلطات الفرنسية عقوبات صارمة ضد عائلات الثوار تتمثل فى مصادرة أراضيهم ، وديارهم ، وامتعتهم ، وفى تغريمهم بضرائب حرب فوق طاقتهم ، ومحاكمة عدد كبير من الرجال أمام محاكم عسكرية ومدنية (29) ·

وقد عثرنا فى أرشيف ايكس أن بروفانس ، على رسالة لقائد الشنموة ، ابراهيم بن الحاج ، وجهها الى الحاكم العام الفرنسى يطلب منه فيها تعويضا عن ضياع فرس له خلال هذه الحوادث، بعد أن تألفت لجان المصادرة والتعويض، لصالح المتضررين (30) ، وسنوردها فيما يلى بلغتها الركيكة والدارجة :

---

(28) Garrot : p. 975 - 978.
— Le colonel Philebert : Expédition dans les Beni Menacer en 1871. (Paris - Dumaine, 1873) 55 p.

(29) من أجل الاطلاع على المزيد من التفاصيل على حوادث هذه الانتفاضة يمكن العودة الى التقرير الذى وضعه الضابط الفرنسى شارل فيلبير :

(30) Archives d'Outre-Mer Aix-en-Province (A.O.M.). Carton 2 H 80.

نص رسالة قائد الشنوة الى الحاكم العام يطلب تعويضا عن ضياع فرس في ثورة بني مناصر 1871

الحمد لله وحده ولا يدوم الا ملكه (31) .

الى المعظم المحترم من له الله امرنا ، ومن الى الله واليه شكواتنا (كذا) . سعادة القفرنور (32) حاكم الجيوش البرية والبحرية عليكم الف سلام ، وعلى كافة من تعلق بكم ، فالمطلوب من الله ثم من جزيل فضلكم تأمر على الجماعة المكلفة بدراهيم الحصاير (33) متاع سنة 1871 ، الى قائد في شنوة ماكث في داره واتت له بطاقة من عند المير (34) متاع زوريك لعزم عنده بناس شنوة لا أنهم تحركوا ليغيثهم، وصابوا (35) بني مناصر سبقوا ونهبوا البقرى (36) متاع الكولون (37) . ولما وصل أي مع الرعية متاعه ضربوا الكولون (37) وقتلوا له عود (38) .

فالمطلوب من الله ثم منك تأمر الجماعة المكلفة يغريموا (كذا) لنا عودنا (38) ، وعليكم الف سلام من خديمكم ابراهيم بن الحاج محمد بن ابراهيم الذى كان قائد شنوة . بتاريخ في سبتامبر سنة 1875 .

---

(31) A.O.M. Carton 2 H 80.

(32) أي الحاكم العام من الكلمة الفرنسية : Gouverneur

(33) أي الاحصاء والحصر . ويريد دراهيم التعويض عن اصرار الحرب خلال انتفاضة بني مناصر .

(34) أي شيخ البلدية من الكلمة الفرنسية : Le Maire

(35) أي وجدوا .

(36) أي البقر .

(37) أي المعمرون من الكلمة الفرنسية : les Colons

(38) أي فرسا .

الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الامام

احمد بن يحيى الونشريسى

المهدى البوعبدلى

هو احمد بن يحيى بن محمد بن على الونشريسى كما عرف نفسه بخطه فى عدة وثائق وقد عرفه بعض معاصريه بانه « أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن على » أي بزيادة اسم عبد الواحد ، بين محمد وعلى ، لصاحب « درجة الناشر ، فى بيان علماء القرن العاشر » ورأيت الاقتصار على تعريف الفقيه محمد الحجوى وزير المعارف فى عهده بالمغرب الاقصى ، الذى نشره فى تاليفه « الفكر السامى ، فى تاريخ الفقه الاسلامى » الذى يعد معاصرا وهو علاوة على ذلك ، أتيح له جمع معطيات لم تتح لغيره ، قال فى تعريفه : « أبو العباس احمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد الونشريسى التلمسانى الاصل ، الفاسى الدار ، حامل لواء المذهب المالكى بالديار الافريقية فى وقته ، وصاحب كتاب « المعيار » المشتمل على فتاوى فقهاء المغرب والاندلس وافريقية ، جمع فأوعى ، وهو من التآليف ذات الشان عند فقهاء الوقت ، على ما فيه من ضعف بعض الفتاوى ، طبع بفاس واشتهر فى العالم، وله تعليق على مختصر ابن الحاجب ، وكتاب فى القواعد الفقهية سماه « ايضاح المسالك الى قواعد الامام مالك » جمع نحو مائة قاعدة فقهية ، بنى عليها الخلاف المالكى ، ولكن كلها أو جلها مختلف فيها ، وعن الاختلاف فيها ، نشأ الاختلاف فى فروعها ، فهو كفلسفة فقهية مفيدة ، وله وثائق وكتاب فى الفروق ، وشرح وثائق القشتالى وغيرها ، توفى فى عام أربع عشر وتسعمائة » اه . ثم قال الحجوى فى الترجمة :ـ وفى دوحة الناشر ، فى آخر العشرة الاورلى فىالقرن العاشر»، ثم قال الا أن صاحب « الدوحة » لا يحرر الوفيات » .

اه تعريف الحجوى « بالفكر السامى » .

وفى الحقيقة ان تاريخ الوفاة ، التى أثبتها الحجوى ، هي محل اتفاق بين كل المترجمين ، اذ صادفت وفاته تاريخ احتلال الاسبان لمدينة وهران ، ولهذا نجد كثيرا من مترجميه وبالخصوص صاحب « ذيل الديباج » يعقب عليها

ويؤكدها بقوله « وهي السنة التى احتل فيها النصارى مدينة وهران » ·

وقبل الدخول فى صميم الموضوع نمهد له بذكر نبذة من تاريخ ونشريس موطن المترجم ، ان ونشريس كان علما ملة جبلها الشامخ ، ولا زال الى يومنا هذا يطلق عليه من قبل أن يطلق اسمه أي ونشريس على الدولة التى تكونت فيه والتى عرفت تارة بدولة بنى توجين، اسم القبيلة الساكنة فى منطقته ، وتارة باسم دولة ونشريس ، تكونت هذه الدولة بهذه المنطقة فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وبالضبط عندما ثار حماد بن بلقين المشهور على ابن أخيه باديس بن المنصور بن بلقين ملك دولة بنى زيرى بن مناد ، اذ لما انتقلت دولة الفاطميين العبيديين من الشمال الافريقى الى مصر ، رخلفت بلقين بن زيرى قائد جيشها على حكم الشمال الافريقى، وكانت عاصمة الدولة فى مدينة القيروان ثم بعد وفاة بلقين خلفه ولده المنصور فانتقل الى قاعدة المملكة بالقيروان ، وترك أخاه (I) حماد بقاعدة الاسرة وهي أشير التى لم يفارقها بلقين مدة حكمه · كان حماد واليا للمنطقة الغربية ، وعندما ثار ابن أخيه كانت قاعدة الناحية الغربية مدينة المسيلة فحينئذ حاصر باديس عمه حماد · ومن جملة من انتصر له أثناء الحصار قبائل بنى توجين البرابرة الذين ينتمون الى زناتة ، فاقطع لهم باديس جزاء لنصرته ، حكم امارتهم ، وهو ما يعرف فى عهدنا بالاستقلال الذاتى وبالاستقلال الداخلى · وكان موقع هذه الامارة كما عرفها الشريف الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق » الذى قال بعد تعريفه لمدينة مليانة ما يلى : « وعلى ثلاثة أيام منها ، وفى جنوبها ، الجبل المسمى ونشريس ، يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة ، وحرشوى ، وكتامة وبنى خليل ، ومطماطة ··· » (I) الى أن قال ··· « وطول هذا الجبل أربعة أيام ينتهى الى قرب تاهرت » ·

وعندما تكونت هذه الامارة ، كانت رياسة القبيلة فى حكم دافلتن ، الذى توارث أفراد أسرته الحكم طيلة القرن الخامس ، وفى أوائل القرن السادس نزل بونشريس الامام المهدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين فى طريقه من ملالة ـ بجاية ـ الى مراكش ، فاستضافهم سكان ونشريس ، رغم انهم كانوا

(I) حماد هذا هو الذى تنتسب اليه دولة بنى حماد كما تنتسب اليه القلعة التى اسسها وصارت قاعدة حكمه لما انفصل عن أبناء أخيه وانقسمت الدولة الى قسمين قسم دولة بنى زيرى ، من سلالة المنصور وقسم بنى بنى حماد ملوك القلعة ثم بجاية ·

(I) وجل هذه القبائل المذكورة لا زالت فى مواقعها ·

يختفون من عيون ملك بجاية الحمادي ، وانضم اليهم عندما عزموا على الرحيل ، الفقيه عبد الله بن محسن الونشريسي المكنى بالبشير ، الذي لعب دورا مرموقا في صفوف دولة الموحدين الناشئة اذ هو الذي عينه الامام المهدي ابن تومرت وخليفته عبد المومن بن علي الكومي ، قائد جيش الدولة ، عندما أعلنوا الحرب على دولة المرابطين اللمتونيين في عهد الملك علي بن يوسف بن تاشفين نال قادة دولة ونشريس مكانة عند الموحدين اذ صاروا محل ثقة عند ملوكهم ، ومن ذلك العهد تبوأوا مكانة مرموقة عند ملوك الدولة الموحدية ، حيث لما هاجم بقايادولة المرابطين ، من بني غانية ، الذين كانوا بجزر ميورقة ونزلوا بمدينة بجاية على حين غفلة ، جهز الملك المنصور (I) الموحدي جيشه ، وتتبع آثار بني انية ، فلحقهم بتونس ، ومر في طريقه اليها ، على أمير ونشريس اذ ذاك وهو العباس بن عطية أخ الامير عبد القوي الذي نالت المملكة في عهده استقلالها ، كما سنتحدث على ذلك في موضعه من هذه الدراسة ، فاستصحبه معه في ذهابه وايابه وذلك في سنة 584 هـ • وفي هذه المسيرة ولى الملك المنصور عميد أسرة بني حقل حكم تونس لخبر يطول ، لا يسع مجال هذه الدراسة المحدودة ، على تتبع تفاصيله، وانما اكتفيت بذكر الخطوط العريضة من هذه الاحداث ، جرني الى ذكرها ، سياق الحديث أولا ، ثم اننا نجدها مرتبطة بموضوع البحث ، وليست كما يقراءى ، خروجا عن الموضوع ، اذ كثيرا ما يقتصر الباحث على الايجاز فيرتكب أخطاء تترك القارىء في حيرة ، فينتج عنها التناقض والتخليط • اذ يعتمدون على سرد الاحداث من تلاخيص ، هذه هي بعض النقط من تاريخ دولة بنيتوجين التي عرفت في كتب التاريخ تارة بدولة بني توجين وهو الاكثر ، وتارة بدولة ونشريس ، من بداية تأسيسها اثر تولية باديس ملك دولة بني زيري على حكمها جزاء لموقفه معه عندما قمع عمه حماد الثائر • وفي عهد الموحدين وبالضبط بعد ما لحق الملك المنصور الموحدي بني غانية ورافقه في مسيرته أمير القبيلة العباس بن عطية سنة 584 هـ تحولت نظرة الموحدين وبرهنوا له انهم يعترفون لهم بالاستقلال، بل وسعوا لهم رقعة الامارة فصار موقعها : تحده شرقا جبال تيطري المعروفة الآن بجبال المدية ، وغربا سهول منداس وشمالا سهول شلف وواديه ، وجنوبا نواحي مدينة فرندة، وصارت هذه المملكة تشتمل على عدة قلاع حصينة منها تاقدمت (I) التي

(I) المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن علي كان بقاعدة المملكة الموحدية اذ ذاك مدينة مراكش •

(I) تاقدمت أسسها الرستميون وكانت عاصمة مملكتهم الى أن أطاح بدولتهم

تقاسمت قاعدة المملكة مع الجبل المعروف الآن ببرج بونعامة وتفرقينت وتاغروت ولمدية فهذه هي القلاع الاربعة التى كانت تشتمل عليها مملكة بنى توجين فى أواخر عهد الموحدين ومن هذه القلاع اشتهرت قلعة تاغروت شهرة عالمية ، اذ فيها اقام المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون لتحرير تاريخه الخالد ، فاقام بها أربع سنوات اتم فيها مقدمته، وقد احتفلت الجزائر منذ سنتين باحياء ذكرى مرور ستة قرون على هذا الحادث ، ونظم المركز الوطنى للبحوث التاريخية ملتقى جمع نخبة من الباحثين : مسلمين واجانب تناولوا حياة هذا العبقرى بدراسة عدة جوانب من تاريخ حياته .

هذه لمحات من تاريخ مملكة ونشريس ذكرتها كتمهيد لترجمة احد أبنائها البررة ، نال شهرة ومكانة فى عهده بعدة عواصم اسلامية ثقافية ، الا انه كان وفيا لجبله الاشم ، فخصصه بتآلیف قيم ، احصى فيه بعض علماء بلاده ، وهو المشهور بكتاب «الوفيات»، زيادة على بعض تآليفه التى نالت شهرة فى بلاد العالم الاسلامى كما اشتهر هذا العالم الاسلامى ببعض مواقفه التى تدل على انه من أباة الضيم والذى كان شعاره مع ملوك زمانه ما خاطب به عبد المهيمن الخضرمى ـ أستاذ ابن خلدون ـ ملك عهده ، ابا الحسن المرينى الذى كان كاتبه الخاص بأبيات لما أساء اليه فكسر قلمه وخاطبه بقوله :

أبت همتى أن يرانى امرؤ
مدى الدهر يوما له ذا خضوع

وما ذاك الا لانى اتقيت
بعز القناعة ذل الخضوع

اذ لم يفارق أحمد بن يحيى الونشريسى بلاده تلمسان الا مكرها ، وذلك ان ملكها أبو عبد الله محمد بن أبى ثابت المتوكل على الله ، الذى اشتهر بتشجيعه للعلماء ، ورعايتهم اذ فى عهده ـ 866 ـ 888 هـ ـ ظهرت تآليف قيمة من بينها « الدر والعقيان ، فى تاريخ دولة بنى زيان » للحافظ التنسى و « الدرر المكنونة فى نوازل مازونة » (I) ليحيى أبى زكرياء المغيلى المازونى ، ورغم ما اشتهر به، فقد حاول اخضاع أحمد ابن يحيى الونشريسى . فصادر أمواله ، واقتحم عليه داره فهدمها، وكان أمكنه التسلل منها فمر عليه الخطر بسلام، حيث وصل الى مدينة فاس فواصل حياته العلمية وترك آثارا فرضت نفسها على تاريخ البلاد الاسلامية كموسوعته الفقهية المعروفة بـ « المعيار المعرب ، عن فتاوى علماء أهل افريقيا والاندلس والمغرب » وقد اشار بعض مترجميه الى اعتزازه بنفسه فقال « كان شديد الشكيمة فى دين الله ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولذلك لم يكن له مع أمراء وقته كثير اتصال » أما تآليفه فكلها

(I) يحيى أبو زكرياء قاضى مازونة توفى بتلمسان سنة 883 هـ

درر وغرر خصوصا كتابه الوفيات وهو وان كان صغير الحجم الا انه نظرا الى ان تاريخ هذه المنطقة مجهول ومغمور رغم ان بعض المؤرخين لم يهملوه ، وفى طليعتهم بن خلدون الا ان ابـن خلدون اهتم بتاريخه السياسى ، وقد تـرك الفراغ لتاريخ البـلاد أي ونشـريس الحضارى والثقافى ، وان كان ما يبرر اهمال الكتا بلتاريخها الحضارى حيث انها كانت دولة بدوية تسكن الخيـام فان تاريخها الثقافى الذى يتـمثـل فى تراجم علمائها أهمل ، فسد هذا الفراغ مترجمـنا فخصـص تأليـفـه المذكـور ـ الوفيات ـ لعلماء ونشريس ، ولـو نجد فى تراجم علماء الاندلس والمغرب كثيرا من تراجم الونشريسى الا أن مجرد النسبة لا تمكن من القطع بأن صاحبها نشأ بونشريس ، اذ كانت الهجرة مـن الشمال الافريقى الى الاندلس متواصلة من عهد فتح الاندلس ، فكان المهاجرون بنية الاجتهاد والرباط كثيرين ، وهـم بالطبع يحتفظون بالنسبة الى قبائلهـم ويورثون هذه النسبة لابنائهم واحفادهم، أما كتاب الوفيات فانه خصصه مؤلفه لمن عاشوا فى البلاد أو ماتوا بها ، فمن هذه الناحية كان لهذا التأليف وزنـه وقيمته ، وقد أدى العلامة احمد بابـا التنبكتى خدمة جليلة للتاريخ حيـث نقل كثيرا من تراجمه فى « ذيل الديباج» ويشاع انه كانت توجد منه بعض النسخ فى الخزائن الخاصة بالجزائر والمغرب ·

ولنرجع الى مواصلة ما سبق لنـا ذكره فيما يخص الاطوار التى استحالت فيها امارة ونشريس من امارة بسيطة، الى دولة ذات شأن تركت بصمـات أصابعها فى التاريخ وذلك من عهـد الامير العبقرى عبد القوى التوجيـنى الذى سبق لنا الحديث عن أخيه العباس ابن عطية الذى رافق الملك المنصـور الموحدى سنة 584 هـ فى مسيرتـه الى تتبع بنى غانية ولنترك الكلمة للمـؤرخ ابن خلدون الذى خصص لهذه المملكة فصولا مضبوطة مدققة فقال « ولما استبد بنو أبى حفص (I) بأمر افريقية ، وصارت لهم خلافة الموحدين نهض الامير أبـو زكرياء الحفصى الى المغرب الاوسـط ودخلت فى طاعته قبائل صنهاجة وفرت زناتة أمامه ، وردد اليهم الغزو فأصاب منهم ، وتقبض فى بعض غزواته عـلى عبد القوى (أي الامير) ابن العبـاس أمير توجين فاعتقله بالخضرة ـ تونس ـ ثم من عليه ، واطلقه على أن يستألف له قومه ، فصاروا شيعة له ولقومه آخـر الدهر ، ونهض الامير أبو زكرياء بعدها الى تلمسان فكان عبد القوى وقومه فى جملته ، حتى اذا ملك تلمسان ورجـع

(I) تقدم لنا ان الملك المنصور لما لحق ببنى غانية وهزمهم بتونس عين عنـد رجوعه والد الامير أبى زكرياء الحفصة عاملا عليها ولما توفى خلفه ولده أبـو زكرياء فخلع طاعة الدولة المركزية وهذا ما أشار اليه ابن خلدون بالاستبداد ·

الى تونس ، عقد لعبد القوى هذا عـلى قومه ووطنه ، واذن له فى اتخاذ الآلة، فكانت أول مراسم الملك لبنى توجيـن هؤلاء » ثم تعرض ابن خلدون فى عدة مواضع لمشاركة ملك ونشريس فى رد عدوان الهجومات الصليبية التى شنها عـلى تـونس المـلـك الفـرنـسى سانلوي الذى لقى حتفـه فيـهـا ودفن بمدينة قرطاج ـ والى هذه الحادثة أشار ابن خلدون بقوله « ولما نـزل النصارى الافرنجة بساحل تونس سنة ثمان وستين وستمائة (668) هـ وطمعوا فى ملك الحضرة بعث المستنصر باللـه الحفصى ـ ولد أبى زكريـاء الحفصى المتقدم الذكـر ـ الى ملـوك زناتـة بالصريخ ، فصرفوا وجوههم اليـه ، وخف من بينهم محمد بن عبد القوى فى قومه ٠ وقد احتشد من أهل وطنـه ، ونزل على السلطان بتونس ، وأبـلى من جهاد العدو وحسن البـلاء ، وكانت له فى أيامه معهم مقامـات مـذكورة ، ومواقف مشهورة ، عند الله محتسبة ، ولما ارتحل العدو عن الحضرة وأخـذ محمد بن عبد القوي فى الانصراف الى وطنهم أسنى السلطان جائزته وعـم بالاحسان وجوه قومـه وعسـاكـره ، واقطعه بلاد مغراوة (1) ، وجهات مـن الزاب »،ثم واصل ابن خلدون حديثه عن ونشريس وتطورها فقال « اخرج محمد ابن عبد القوى فىعهده الثعالبة الذين كانوا يحكمون جبل تيـطرى وانزاحوا الى سبانط متيجة وأوطنوها ٠

نكتفى بهذا القدر لتوضيـح أطوار مملكة ونشريس الـتى لقيت الجحـود والعقوق من أبنائـهـا حيث نجدهـم يتطاولون على تاريـخممالك ورجـال لا يمتون لهم بصلة ، وأهلهم فى غـنى عن تطفلاتهم ومع هذا يضربون صفحـا عن تاريخ بلادهم واحياء ذكرى رجـال اشتهروا بآثارهم فى الميادين البطوليه والفكرية ، وممالك أو امارات كانـت ولا زالت محل عناية المؤرخين النزهاء ، والانكى ان كثيرا ما يكتب بعضنا عـن هؤلاء العلماء ونتهمهم ـ ظلما وعدوانا وغباوة ـ بأنهم كانوا كلهم يتقـربـون للملوك والسلاطين يحلون لهم الحـرام ويشوهون التاريخ لترضيتهم ، ويعمون هذا الحكم القاسى الجاسر الذى لربمـا نجد أقلية ينطبق عليها ، أما تعميمـه على علماء السلف فذلك خطأ وظلـم وذكرت هذا بمناسبة تناول ترجمة هذا العالم أي أحمد بن يحيى الونشريسى الذى كان يمثل الشهامة وخـلد لـه التاريخ مواقفه البطولية التى غـادر بسببها عاصمة بلاده تلمسـان وقـد سبقه علماء آخرون خلد التاريخ مواقفهم مع ملوك زمانهم ـ الذى كان فيه الملك ملكا ـ ومن ذلك ما قاله عبد الرحمـن

---

(1) بلاد مغراوة كانت اذ ذاك تحت حكم بنى منديل وعاصمتها مازونة وكان حكمها يمتد الى متيجة ومدينة الجزائر ٠

الثعالبى دفين الجزائر فى فهرسته يصف العلماء الذين أخذ عنهم ببجاية فى رحلته العلمية فذكر من بينهم تلامذة أحمد بن ادريس ـ صاحب المعهد بنواحى العزازقة ـ وتلميذه عبد الرحمن الوغليسى وأحمد بن ادريس هذا كان من مشائخ ابن خلدون قال الثعالبى انه وجدهما توفيا قبل وصوله الى بجاية الا انه أخذ عن تلامذتهما الذين كانوا على سننهما : « لا يعرفون الملوك ولا يترددون على أبواب قصورهم » ولم يخل تاليف من تآليف الثعالبى المذكور من تعرضه لاستعراض تآليفه التى ألفها واحدا واحدا مع ذكر سنه ويحث قراءه على عدم اهمال التعريف بأنفسهم لتتأكد الثقة فى التأليف ثم يصب جام غضبه على المؤلفين الذين يهدون تآليفهم للملوك والسلاطين فيقول « وينبغى للمؤلف أن يقصد به وجه الله . وما أقبح حال امرىء يقصد بأعماله عبدا مثله ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا » ثم اذا التفتنا الى من كتاب هذه الترهات ويرسلونها ـ من دون حياء أو خجل ـ فى التجمعات ان التفتوا الى أنفسهم ـ بالنقد الذاتى على حد تعبير المعاصرين ـ يجدون أنفسهم منغمسين فى الترف والتقرب لا الى الملوك والسلاطين ، بل الى الاذناب واذناب الاذناب الذين يصطادون فى الماء العكر وينالون مناصب وبمجرد ما تدور الدوائر عليهم يفرون منهم ويتنكرون لهم ، ولنرجع الى مواصلة حديثنا عن مواقف الثعالبى الذى ذكرناه كنموذج لاباة الضيمفانه استاذنه سكان الجزائر على صلاة الاستسقاء وكان ملازما لبيته أثر مرض فأجابهم بأبيات شعرية منها هذان البيتان :

يطوف السحاب بمزغنة ... بعذب فرات وماء زلال

يريد النزول فلم يستطع ... لجور القضاة وظلم الولاة

أأمثال هؤلاء يرمون بالتزلف والتقرب « **كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا** » ولنختم هذا الفصل بذكر شعار علماء الحديث السلفيين الذين لم تخن جائزة من جوائزهم ـ لتلامذتهم الذين كانوا يشدون اليهم الرحال ـ من هذه الوصية : « اتركوا اليأس مما فى يد الناس تعيشوا أعزة » وكان هذا شعارهم خلفا عن سلف .

ولنعد الى مواصلة بقية الحديث عن ترجمة أحمد بن يحيى الونشريسى التى ركزتها على بعض الجوانب المجهولة من حياته ، وأهم هذه الجوانب هو اكتشاف وثيقة كتبها فى تلمسان قبل نكبته بثلاث سنوات وهي عبارة عن تقريض تأليف استاذه أبى زكرياء يحيى بن موسى

المغيلى المازونى : « الدرر المكنونة فى نوازل مازونة » وهذا التقريض مجهوز تماما ، اذ لم يشر اليه أحد من مترجمى الونشريسى المتوافرين بن صرح كثير من هؤلاء المترجمين للونشريسى أن تأليفه « المعيار المعرب ، عن فتاوى علماء أهل افريقية والاندلس والمغرب » انه استفاد فيما يخص فتاوى فاس والاندلس من خزانة تلميذه قاضى فاس فى عهده محمد بن الغرديس التغلبى قال أحمد بابا التنبكتى فى « ذيل الديباج » فى ترجمة أحمد الونشريسى ما يلى : « وبخزانة هذا الرجل ـ أي محمد بن الغرديس قاضى فاس ـ انتفع ، لاحتوائها على تصانيف الفنون ، وبها استعان فى تصنيف كتابه « المعيار سيما فتاوى فاس والاندلس فانما تيسرت له من هذه الخزانة قلت واما فتاوى افريقية وتلمسان فاعتمد فى ذلك على نوازل البرزلى والمازونى فيما يظهر لمن طالعهما » اه .

على هذه الوثيقة ، كما لم يشر أي أحد لها أو الى الظروف التى اجتمع فيها بشخصه المازونى اكتشف هذا التقريض بعد استقلال الجزائر وبالضبط سنة 1964 ، اكتشفه المرحوم الشيخ نعيم النعيمى مفتش الشؤون الدينية بولاية قسنطينة فى عهده اذ استعار نسخة « الدرر المكنونة فى نوازل مازونة » من خزانة الشيخ عبد القادر بن يسعد بقرية الدبة (1) ناحية قلعة بنى راشد قرب غليزان ـ فوجدنا ان النسخة نقلت من خط مؤلفها وعليها تقريض الونشريسى المذكور سماه ناسخه « بالاجازة » وقال انه نقله من خط الونشريسى وهذا نص التقريض « الحمد لله مستحق الثناء والحمد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد حائز أوصاف الكمال فى كمال المجد ، وبعد فانى لما طالعت السفر الثانى على أرمزة الانكحة والبيوع من التأليف الجامع المانع المطبوع المقيد هذا على أول ورقة منه المترجم بالدرر المكنونة فى نوازل مازونة جمع الفقيه الشيخ القاضى العالم العامل المفيد الجامع الشامل الحافظ الحافل الكامل المشار اليه فى سماء المعالى بالانامل ، الصدر الاوحد العلامة العلم الفضال . ذى الخلال السنية ، وسنى الخصال شيخنا ومفيدنا وملاذنا وسيدنا ومولانا وبركة بلادنا أبى زكرياء سيدى يحيى ابن الشيخ الفقيه الامام علم الاعلام ... ابى عمران سيدى موسى ... الى أن قال « قد أحرز خصلها ، وجمع فرعها واصلها ، ورفع

(1) كان هذا الشيخ من المتخرجين على الشيخ بن محمد بن على المجاجى المتوفى سنة 1008 هـ وانتصب للتدريس بقرية الدبة وكون خزانة جمعت نوادر المخطوطات وضاع معظمها فيما ضاع من كتب التراث .

عنها نقاب الشيت والشكوك ، وأوضح نتائج الرسوم والصكوك ، وشحنه صاحبه أعظم الله مثوبته بكل نكتة بديعة ، من علم القضاء والفتوى ، وكل حقيقة ودقيقة تمس اليها الحاجة وتعم بها البلوى وحشد عيون نصوص مالكية المغرب والمشرق وجند ونشر الويته الخفاقة عل ىكل من ألف فى الفن وبنى ... ثم تعرض للظروف التى انتقل فيها المؤلف الى تلمسان وذلك ان المتوكل السابق الذكر عينه مستشارا فى بلاطه ... ثم ختم هذا التقريض بقوله « والسلام الجزيل الجميل الاتم ، الاطيب الأهم يعتمد سيادة مؤلفه من كتابه العبد الفقير الجانى ، على البعد والتدانى ولحمها بالسر والمعانى عبيد الله تعالى أحمد بن يحيى بن محمد بن على الونشريسى خار الله له سبحانه وتعالى ولطف به وكتب فى العشر الاول (بياض) عام احدى وسبعين وثمانمائة عرفنا الله خيره » اهـ .

هذه هي الوثيقة التى ركزت عليها ترجمة أحمد بن يحيى الونشريسى وهي علاوة على تقريض صاحبها لكتاب « الدرر » أفادنا بجوانب متعددة من ترجمة صاحب الدرر من بينها الظروف التى انتقل فيها من مازونة الى عاصمة البلاد تلمسان حيث لقى بها حتفه ودفن فيها مع ان مترجمى صاحب الدرر لم يخصصوه الا بسطور قليلة عرفوه فيها بأنه تولى قضاء مازونة ومات ودفن بتلمسان وفى ذلك قال أمثل مترجميه صاحب « ذيل الديباج » : « يحيى ابن أبى عمران موسى بن عيسى المازونى قاضيها الامام العلامة الفقيه أخذ من الائمة كابن مرزوق الحفيد وقاسم العقبانى وابن زاغو وابن العباس وغيرهم ونجب وبرع والف نوازله المشهورة المفيدة فى فتاوى المتأخرين أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم فى سفرين ومنه استمد الونشريسى مع نوازل البرزلى فيما يظهر لى ، وأضاف اليهما ما تيسر اي من فتاوى أهل فاس والاندلس والله أعلم توفى كما قال الونشريسى عام ثلاثة وثمانين وثمانمائة بتلمسان ووصفه بالفقيه الفاضل » اهـ .

هذه صفحات من هذه الوثيقة الجوهرية بقيت مجهولة مغمورة نسج عليها العنكبوت بيته أهملها ورثة هذه الخزائن فلا هم استفادوا منها ولا مكنوا وسهلوا للمستفيدين أن يطلعوا عليها مع أن مؤسسى هذه الخزائن اشترطوا فى تحبيسهم الاهلية فى أعقابهم وقيمة هذه الوثيقة ليست منحصرة فى تقريض كتاب الدرر والاشادة بفضائل مؤلفها بل نجدها أيضا فى التعريف بمؤلفها والاشارة الى الظروف التى انتقل فيها الى تلمسان وذلك ان الملك المتوكل دعاه الى التدريس والاستشارة بالبلاط ثم تعرضه الى ترجمة والد المؤلف وجده الذين تولى

كل منهما القضاء بمازونة وكان والده من كبار المؤلفين حيث قال الونشريسى فيه « صاحب اليد الطولى والقدم الراسخ فى كل مقام ضيق وذى التصانيف التى كل لب اليها شيق المفتى المفيد المنعم أبى عمران سيدى موسى » ، ولولا هذا التقريض لما كنا نطلع على ترجمة هذا العالم الذى أهمله قومه ولم تحظ موسوعته الفقهية حتى بالاشارة اليها مع ان « المعيار » الذى نقل فتاويها حظي من جهته بالنشر وحظي مؤلفه بالتراجم المسهبة ، ولا زال محل عناية الباحثين ، بخلاف أستاذه ومفيده المزونى المذكور اللهم الا ان استثنينا ما قام به أخيرا أحد أعلام الفكر المعاصرين المستشرق الفرنسى جاك بيرك الذى خصصه بدراسة قيمة جعل موضوع سلسلة محاضرات بالجزائر ونشر بعض فصولها فى مجلة الحوليات التى تصدر بباريس · هذه هي الخطوط العريضة من ترجمة أحمد بن يحيى الونشريسى خصصتها للعدد الخاص من مجلة الاصالة وقد ركزتها على هذه الوثيقة الجوهرية ·

الونشريس مهد كفاح بعيد وقريب

د· صارى الجيلالى

(جامعة هوارى بومدين ـ الجزائر)

من بين الجبال التى لعبت دائما دورا بطولى فى المقاومة ضد الغزاة والمضطهدين هي تلك المرتفعات الشاهقة الواقعة جنوب سهول وادى الشلف والمرتبطة بالتيترى شرقا والتى كانت تكسوها غابات كثيفة بدون انقطاع الى قبيل منتصف القرن (1) العشرين (م) ألا وهو الونشريس (2) والذى يمثل همزة وصل بين التل والصحراء نظرا الى موقعه الجغرافى (انظر الخريطة) ·

ومثل هذه الميزا تالطبيعية الرئيسية جعلته مؤهلا للقيام بدور هام عبر العصور الغابرة والحديثة كما اثبتت ذلك البحوث التاريخية الموضوعية وكذا الوثائق المختلفة وخاصة التى لا زالت موجودة الى الآن ويستطيع أن يلتمسها كل ملاحظ مثل الثكنا تالثلاثة الضخمة التى شيدت فى أماكن استراتيجية فى منتصف القرن الماضى من طرف الجيوش الفرنسية لاخماد الثورات الشعبية ، وهناك أيضا علامات أخرى غير مباشرة لاستمرارية هذا الكفاح وهي تتجلى فى انعدام معظم الغابات بعد تعميم استعمال النابالم من طرف الطيران الفرنسى أثناء حرب التحرير ·

والغرض من هذا العرض هو الفات النظر الىهذا الدور الاساسى فى اثبات الشخصية الجزائرية عبر العصور أمام كل احتلال أجنبى ولكننا نكتفى بالنقط التالية :

ـ عبرة المقاومة أثناء الاحتلال الرومانى ·

ـ المقاومة العنيفة ضد الاحتلال الفرنسى ·

---

(1) انظر بحثنا الخاص بهذا الموضوع
Problèmes de l'environnement lans les pays sous-développés : le déboisement de l'Ouarsenis, dans recherches sur l'Algérie, Paris, CNRS, 1975, V. 17, p. 105 - 164.
R. Basset

(2) ومعنى هذا اللفظ : « ما ليس أعلى منه » وبالفعل ليس هناك قمة أعلى من قمة كاف عمار (1980 م) ·
R. Basset : (Ciornale della societa Aiosotn Itaȷiana, Vol. X, 448) et Brockelmann : Geschichte der Arabischen Literatur, t. II, 248) cités par Pérez dans « Extrait d'al Miyar », Alger, 1940.
ويبدو أن كلمة ورشريس هي تحريف لـ : Ouarensis, Ouarcharis, Ouarsenis

(1) عبرة المقاومة أثناء الاحتـــلال الرومـــانى :

بالرغم من امتداد طول مدة الاحتلال الرومانى التى استغرقت ما يقرب مـن 6 قرون (من الاستلاء على كارتاج فى 148 قبل الميلاد الى ظهور الفاندال فى 429 بعد الميلاد) وبالرغم من الاستـلاء على جزء كبير الاراض الجزائريـــة بالشمال بفضل وجود جيوش عديـــدة متمركزة فى عميات وخاصة بمركـــب اليمس (Pimes) وبالرغم ايضا مـــن انشاء شبكة من المدن المحصنة فـــان الاستعمار الرومانى لم يتوصل بعد الى احتلال بعض المناطق الجبلية وخاصـة الونشريس • وهنا لابد ان نطرح اسئلة هل السبب الرئيسى يرجع الى مقاومـة السكان أم الى عدم رغبة المحتلين انفسهم كما انه من الممكن أيضا أن نفرض قلـة وجود السكان بالمرتفعات •

1 ـ شواهد استطانة قديمة جدا

بالنسبة للمناطق الشرقية فان بقايا الحضارة القديـــمة ضئيلـــة جـــدا بالونشريس بصفة عامة الا انه هنـاك شواهد لها اهمية هامة بحيث انها تبين بصفة قطعية استطانة هذه المرتفعـــات منذ 7 الى 8000 سنة تقريبا اي منـــذ ثبوت الغطاء النباتى للزمن الرابع (3) •

وبالفعس قد عثر على شواهد مختلفة وذات قيمة تاريخية أعظمها من الاحجار المستعملة من طرف الانسان وهي كثيرة بمنطقة وادى رهيو (انظر الشكل) وخاصة بمحطة Columnata بالقرب من تيارت (4) وقد احتوت هذه المحطة على عدة طبقات تكاد تكون متكاملة من عهد الحجرى القديم الى عـــهد اكتشـــاف الزراعة وحسب الباحث Camps (5) فان ظهور هذه الاخيرة يرجع الى حوالى القرن الثانى قل الميلاد •

وهكذا نستخلص أن جبال الونشريس قد عرفت استطانة قديمة وكان السكـان بها يتعاطو نالزراعة قبيل الاحتـــلال الرومانى لكارتاج والزراعة معناهـــا وجود علاقات وثيقة تربـط الانســـان بالاراضى التى يعيش فيها اذ انهـــا تضـــمن له العيش ولا يستطيـــع أن يغـــادرها فجأة بدون أن يجعل حياته فى أخطار وهل هذه الخلاصة تتمـاشى والملاحظات التالية ؟

2ـ شواهد المقاومة العنيفة

لو كانت هذه الجبال قليلة السكان لما اضطر الرومان الى بذل جهود هامة لحماية الاراضى القريبة منها وخاصة سهول وادى الشلف وعلينا أن ننتبـــه الى المنشآ تالتى تأكد الاخطار الـتى

(3) J. Dresch : *Le changement de climat en Afrique du Nord*. Information Géographique, Paris, n° 3, 1960, p. 107 - 113.
(4) Cadenat Recherche sur Columnata, Libyca, Alger, 1966, p: 21 - 114.
(5) Camps : Les civiisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara. Paris, Doin, 1974, 366 p..
et : Aux origines de la Berbérie, Massinissa, Alger, 1966.

كانت تهدد الوجود الاجنبى بالقرب من الونشريس ·

ان مراكز وادى الشلف عبارة عن محميات مثل Oppidium Noum (عين الدفلة) و Tigaua Sastra (أولاد فارس) و Castellum Tingitannm (الاصنام) ··· وما هذه المراكز المحصنة الا جزء لا يتجزء من موكب اليمس كما أكد ذلك Courtois (6) وقد أضاف هذا الاخير ما يلى :

« ان الآثار (الرومانية) خالية بالمنطقة الوسطى (للونشريس) وأكثر من ذلك فان المحتلين اضافوا جزءا اخر للمركب الرئيسى لليمس بجنوب المرتفعات » ·

وأما الاسطورة التى تحدث عنها R. Basset والمتعلقة بأميرة الرومان التى عاشت بقمة بالخيرات والتى حاربت العرب فانه لا أهمية لها ولا معنى لها بل ان هذه الاميرة انما هي رمز لبطولة المرأة أمام الاخطار (7) وحسب أساطير السكان بالمنطقة ان هذه الاميرة كانت عدوة الروم أي الاجانب ·

3 ـ أسباب المقاومة

يستخلص مما تقدم أن الاستطانة بالونشريس قديمة جدا كما هو الشأن بمعظم الجبال وعدد سكانه كان من دون شك مرتفعا بحيث أنهم استطاعوا أن يفرضوا وجودهم واستقلالهم أمام غزاة اضطروا أمام هذه المقاومة والصمود أن يشيدوا مجموعة من المحميات للدفاع عن مراكزهم شمالا وجنوبا وكل هذا يتأكد لنا فى الحوادث التالية حينما ارسلت روما أحد قوادها المشهورين وهو Théodose من أجل اخماد ثورة تبناه Firmus من 372 الى 375 م وقد انضم الى هذا الاخير حينما وصل Théodose الى وادى الشلف جماعة من القبائل الجبلية منها Mykines Macices (8) وربما تكون هذه القبائل التى يصعب تحديدها فى المكان بالضبط من قبائل الونشريس ·

ومما يثبت هذا الرأي الملاحظات والاحداث التالية التى تجسدت فى الثورات الشعبية التى استمرت طويلا بعد ظهور المسيحية واصبحت هذه الاخيرة تكتسى صبغة محلية خاصة تعرف باسم Donatisme وصار أصحابها يحاربون الكنيسة الرسمية المستغلة والمضطهدة للجماهير وقد تعززوا بعد ذلك بانضمام البؤساء (9) المستغلين من طرف المعمرين الرومان

---

(6) C. Courtois : Les Vandales et l'Afrique du Nord. Paris, 1955.
(7) R. Basset : Etude sur la Zénatia de l'Ouarsenis et du Maghreb Central. Paris, 1895.
(8) Gsell : Considérations géographiques sur la révolte de Firmus. Recueil de la Société Archéoogique de Constantine, 1902, V. 26.
Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris, 1960, t. I, p. 220.
(9) Bouamrane Cheikh : Saint Augustin et la Résistance populaire donatiste. Revue des Sciences Sociales, Alger, n° 1, 1979, p. 91 - 98.

وكبار الملاك واسم هؤلاء البؤساء هو Circoncellions (أي ما يحوم حول المزارع) ·

وهكذا ندرك الاسباب الرئيسية للثورات الشعبية والمقاومة المستمرة بالمرتفعات طيلة ذلك العصر الطويل وهي الاسباب الاقتصادية والسياسية قبل كل شيء وهناك ظاهرة بارزة لابد من التاكيد عليها خاصة بجبال الونشريس وهي ان السكان لم يرتبطوا بأراضى جبالهم فحسب بل كانوا دائما فى حاجة الى استغلال الاراضى الموجودة بالسفوح وحتى أراضى السهول شمالا وغربا كما لاحظ ذلك الخبراء الفرنسيس أنفسهم بعد الاحتلال وما هذه الظاهرة الا برهان قاطع للنظرية الاستعمارية التى كانت تدعى وان الجبال بالشمال الافريقى هي ملجأ للسكان ··· بل ان السكان اعتصموا بالمناطق الجبلية لا لتجنب الغزوات وانما هي المناطق الصالحة للاستطانة نظرا الى الاخطار التى تمثل السهول سواء فى الصيف (ارتفاع الحرارة) أم فى الشتاء (الفيضانات والجراثيم) فالجبال قد خصصت للاشجار مع السفوح وذلك لوقايتها من التعرية ، بينما أن السهول خصصت لزراعة الحبوب والاقتصاد الرعوى · وكل هذا يبين التكامل الاقتصادى وبالتالى ضرورة استغلال كل الاراضى كما بيناه فى أطروحتنا وفى أبحاث كثيرة (10) ·

(2) المقاومة العنيفة ضد الاحتلال الفرنسى

زيادة عن الاسباب الرئيسية التى ذكرت ، هناك عامل جديد قد لعب دورا هاما اثناء الغزو الفرنسى ، فبالاضافة الى ارتباط السكان بأراضيهم وتعلقهم بها ، فانهم لبوا دائما دعوة كل منادى الى الجهاد باسم الدين الحنيف كما يتجلى ذلك فى مقاومات بومعزة وسيدى الازرق مثلا فى منتصف القرن الماضى ·

1 ـ المقاومة ضد الغزو الفرنسى

كما أشرنا الى ذلك فى المقدمة هناك على الاقل ثلاثة ثكنات ضخمة فرنسية بالونشريس تؤكد عن الحوادث الدموية التى عرفتها المنطقة خلال القرن الماضى وتوجد هذه المحميات فى ثنية الاحد ، وعمى موسى وزمورة ، أي فى أماكن معينة كانت مسرح معارك طاحنة بين السكان والجيوش المجهزة بأسلحة فتاكة ·

وقبل تشييد هذه الثكنات فان Bugeaud قد اضطر الى بناء مدينة الاصنام فى 1842 ـ 1843 أي فى وادى الشلف لحصار وقمع الونشريس خاصة

---

(10) Dj. Sari : L'homme et l'érosion dans l'Ouarsenis. Alger, 1977, SNED, 625 p.
Les problèmes de l'environnement dans les pays sous-développés, dans Recherches sur l'Algérie. Paris, CNRS, 1975, V. 17, p. 104 - 164.

وأن هذه الجبال كانت تحمى قاعدتين هامتين للامير عبد القادر وهما تاقدمت بالقرب من تيارت وتازة ، جنوب ثنية الاحد ، فانطلاقا من الاصنام استطاعت الجيوش الفرنسية أن تغزو الجبال وأن تشن غارات ضد القبائل ولم تتمكن من ذلك فى سنوات 1842 ـ 1843 الا بعد ما أن لجأت الى الوسائل الاستثنائية أي قطع الاشجار والاستيلاء على الانعام وأخذ الرهائن من نساء وأطفال (11) وشيوخ ·

ولكن بالرغم من ذلك سرعان ما تجندت القبائل حينما ترددت بالونشريس أصداء دعوات البطل الشريف الذى كان يدعى بمحمد بن عبد الله المعروف لدى الاوساط الشعبية ببومعزة (12) وهو يخوض معارك ضارية بجبال الضهرة بالشمال فقد استئنفت المعارك من جديد وتعممت فى أقاليم عديدة هددت الجيوش الفرنسية خاصة وان معظم المتعاونين معهم فروا والتحقوا بصفوف محمد بن عبد الله وأمام هذا الوضع لجأ الضباط المحتلين الى تعميم وسائل التخريب وابذلوا كل ما فى وسعهم الى القاء القبض على عدد كبير من المكافحين وحينما سقط فى ميدان الشرف عدد هام من (13) المجاهدين والعزل وذلك فى سنة 1847 ·

ولم تكن هذه المرحلة آخر المقاومة بالقرب التاسع عشر بل فى مطلع سنة 1864 ما ان شيدت قلعة ثنية الاحد لتمركز أحيانا 8000 جنديا فى منتصف ذلك القرن ، لبت القبائل الموجودة بين وادى رهيو ووادى متناء بغرب الونشريس دعوة سيدى الازرق أحد أفراد عائلة القبيلة فلقد استطاع هذا القائد والزعيم الدينى وابنه العزيز وصفوفه أن يفرض قوتهم وعزيمتهم أسابيع طويلة أمام أعظم جينراان من جينرالات الفرنسية وهو Lappasset بحيث ان هذا الآخر تراجع عن مهمته وتمرك بغيلزان وطلب النجدة من قلعة الاصنام ثم من فرنسا نفسه وكادت المعارك أن تنتشر الى الضهرة ، وبالقرب من المراكز الاوروبية بقرب غليزان لولا هذه النجدات من فرنسا ·

وقبل أن نذكر نتيجة هذه المقاومة علينا أن نشير الى أهميتها فى تاريخ

(11) Tableaux de la situation des établissements français en Algérie. Paris, 1843 - 44.
وهي العمليات التى قام بها الجنرال Changarnie والجنرال Yusuf .

(12) علينا أن نميز بين هذا البطل والبطل الثانى الذى يحمل نفس الاسم واللقب والذى واصل الكفاح فى الجنوب من 1851 الى 1861 بعد ما القي عليه القبض ونفيه الى فرنسا الى أن أطلق صراحه نابليون الثالث فى سنة 1862 ·
فالشريف محمد بن عبد الله الذى تزعم المقاومة ابتداء من سنة 1845 خاض المعارك بالشمال بجبال الضهرة ولم يستسلم الا فى سنة 1847 وبعد نقله الى فرنسا أطلق سراحه فالتحق بالجيش العثمانى وفيه نال رتبة عقيد ·

(13) Le général Lapasset, par un ancien officier de l'Armée du Rhin. Paris, 1899, 2e édition.

القطر الجزائرى ، فان مقاومة سيدى الازرق أو قبيلته كما عبرت عنها السلطات الاستعمارية انما هي جزء من مقاومة الجنوب الوهرانى التى اشرف عليها أولاد سيدى الشيخ والتى شارك فيها أبطال المقاومة السابقة مثل سيدى الاعلى ذلك الصنديد الذى اعترف به أعداؤه مثل Trumelet (14) وناصر ابن شهر وغيرهم وفى الواقع أن هذه المقاومة شملت مناطق أخرى واستمرت أشهرا طويلة خاصة بالجنوب ولم تنته نهائيا الا بعد مقاومة بوعمامة (1882) ...

وأما بغرب الونشريس فقد كانت المعارك ضارية الى أن وصلت الجيوش القادمة من ميناء مستغانم تحت قيادة الجنرال Rose وتدعمت بجيوش Lapasset وجيوش أخرى تحت الوالى العام بالنيابة ونظرا الى هذا التناسق من جهة وتعاون بعض العلماء مثل لاغا عمي موسى وابناءه من جهة أخرى وبعدما أن سقط عدد هام من المجاهدين يقدر ببضعة آلاف من بينهم سيدى الازرق كما تشهد على ذلك الوثيقة التى عثر عليها Lapasset فى جثته وذلك بأراضى دوار دار بن عبد الله فى غرة جوان 1864 فان القبائل اضطرت الى الاستسلام خاصة بعدما أن ارغمها Lapasset حينما التجأ كعادة الضباط الآخرين الى قطع البساتين وأخذ رهائن من النساء والاطفال كما صرح بذلك بنفسه فى مذكراته وبعدما أن أفرض غرامات باهضة قدرت بمليونين من الفرنكات حسب ما صرح بذلك فى احدى رسائله (15) فقد جاء فى احدى الوثائق للجنرال Lapasset ما يلى :

« 2 جوان : احترقت أراضى أولاد العابد وأولاد عيش وأولاد الدنيكر .

3 جوان : قهرنا كل قبائل عمي موسى

4 جوان : استسلمت 7 قبائل .

5 جوان : تدمير أراضى غمامرة وأولاد الصابر (الاستلاء على 15000 راس من البقر) .

14 جوان : توغل كتيبتين فى وادى رهيو : ان قرى مكناسة احترقت ابتداء من 14 جوان غارات عامة لاربع فصائل وذلك لقمع النهائى للقبائل التى تواصلت مقاومتها الى 3 جوليت » (16) .

وما هذه التصريحات الا نظرة وجيزة عن عنف القمع والدمار الذى أرغم السكان الى الاستسلام وقبول الامر الواقع وحبذا لو شيد تمثالا فى احدى

---

(14) « Homme d'un rare audace... que nous avons toujours trouvé devant nous dans les « combats que nous avons livrés dans le Sud algérien pendant ces zeize dernières années. « Il a exécuté sur notre territoire et jusque dans le Tell des pointes d'une témérité « inouïe, et qui eussent suffi pour illustrer un général européen », in Le général Yussuf, Paris, 1890.

(15) Le général Lapasset.

(16) الارشيف للولايات العامة بالجزائر سابقا ، 873

هذه المسارح تخليدا لتضحيات القبائل فى نفس المكان الذى قال عنه Lapasset ما يلى أي فى القرية الموجودة الآن وهي الرحوية :

« من دون شك هنا وفى المستقبل يشيد تمثالا ليطلع المارين عن ضحايانا وعن الخسائر التى الحقنا بها قبائل افليتا » (17) ·

وبفضل هذه المعلومات الموجزة نستطيع الآن أن ندرك معانى ومغزى وجود تلك الثكنتين الضخمتين الموجودتين فى عمى موسى وثنى زمورة التى كتبت عليها الآن وعلى جدرانها ملخص ذلك التاريخ الدموى خاصة وان الاستبداد الاستعمارى تواصل بعد 186 بصفة خاصة فقد تواصل بضرب غرامات باهضة ضد السكان الذين اضطروا الى استعمال الغابات كما تبين فى الغرامة التى أجبرت بها بعض القبائل بعمى موسى عام 1893 والتى ارتفع مبلغها الى 84·641،23 ف وهو المبلغ الذى لا مثيل له فى باقى الوطن أثناء كل مدة الاحتلال الفرنسى (18) · الم يكتب أحد أفراد لجنة التحقيق بهذا الشأن ما يلى بصدد سكان ثنية الاحد :

« ان الغرائم تهطل عليهم مثل الوبل » (19) ·

ومهما يكن من أمر وبالرغم من سوء العيش ومرارته أثناء مدة طويلة فان السكان لم ييأسوا وانتظروا بفارغ الصبر دعوة جديدة للجهاد وذلك ما حدث أثناء حرب التحرير ·

2) مشاركة الونشريس فى حرب التحرير والدورالذى لعبه :

ان كل من يتتبع ذلك بصفة مباشرة أو غير مباشرة الا ويستطيع أن يكتشف العلامات والشواهد فى الميدان اذ ان آثار التدمير بالنابالم قد عثرت عليها بسهولة وبدون اعانة ابتداء من سنة 1969 وجدتها بالاخص فى غابات الوسط واستطعت بذلك أن ألتقط عدة صور شمسية وحاولت أن أنشر الاهم منها (20) ، (انظر الصورتين 2 و 3) ·

وأما الملاحظ الذى يريد أن يتعمق فى الموضوع فما عليه الا أن يواصل أبحاثه عبر المرتفعات وأن يستعين بالاشخاص الذين عاشوا الحوادث وتاثروا بها فيدرك تدريجيا دور الونشريس فى الحرب التحريرية فيعرف مثل ان هذه الجبال كانت تأوى محطات رئيسية لكل من الولاية الخامسة (وهي التابعة للقطاع الوهرانى) والرابعة (وهي التابعة للقطاع الاوسط مع جبال القبائل) وقد جرت فيها عدة معارك ونظرا الى الموقع

---

(17) Le général Lapasset, op. cit., t. ?, p. 26.
(18) Bulletin Officiel du Gouvernement Général de l'Algérie. Alger, 1893, p. 83 - 84.
(19) Pensa : L'Algérie, voyage de la délégation sénatoriale. Paris, 1894.
(20) Dj. Sari : L'homme et l'érosion dans l'Ouarsenis. Op. cit., p. 96.

الجغرافى البارز فان السلطات العسكرية الفرنسية قد تجندت وبذلت اقصى مجهوداتها لقمع الكتائب وقد حاول الجنرال شال مثلا أن يقضى على الثوار فى سنة 1960 بواسطة عمليات مختلفة (21) ·

وهناك ملاحظات أخرى تبين لنا قساوة الكفاح فى هذه الجبال فلقد أعدت السلطات الفرنسية « كتائب » مضادة اشرف عليها المدعو Kobus (وهو بلحاج الجيلالى) (22) فضلا عن تجنيد ما كان يسمى بالحركة أي المتعاملين مع العدو وقد تم هذا من طرف رئيس المجلس الفرنسى للنواب وهو البشاغا بوعلام الذى كان يملك مزرعة بالقرب من قرية الكريمينة ·

وما هذه المعلومات الوجيزة الا برهان عن تلك الفترة البطولية التى اشتهر فيها عدد كبير من المجاهدين ومن اشهرهم نقتصر على ذكر سى امحمد (محمد بومعزة) أحد رؤساء الولاية الرابعة ، وكذلك سى محمد وهو أبو نعامة الجيلالى من مواليد برج بنى هندل حيث ولد فيه J. Berque والذى أصبح يدعى الآن باسم البطل الذى استشهد فى 8 أوت 1961 أي قبل بضعة أشهر قبل الاعلان عن وقف اطلاق النار ·

واسم أبو نعامة أصبح مربوطا بما سجله التاريخ بمعركة الونشريس وهي تلك المعارك الطاحنة التى استشهد فيها مئات من الشهداء ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نذكر أهم ما رواه لنا احد أمناء الناحية حسب ذكريات ثلاثة ضباط من جيش التحرير (23) ·

وقعت هذه المعارك بعد ما قررت السلطات الاستعمارية أن تقضى نهائيا على مقاومة الونشريس فأحضرت عددا هاما من جنود اللفيف الاجنبى قدر تقريبا ما بين 20000 الى 30000 رجلا واستغرقت العمليات من منتصف شهر مارس الى شهر جوان 1959 وقد امتازت العمليات بتدخل الطيران طيلة المدة على وجه العموم ومثل بذلك الخطر الكبير والعنيف بالنسبة للمجاهدين فابتداء من تجمع اللفيف الاجنبى اشتدت المعارك وفجأة تدخل الطيران فأحرقت الغابات وتأثر لذلك صفوف المكافحين وبذلك قدرت الخسائر بعدة مئات من كلا الطرفين خاصة فى شهر أبريل وأمام هذا الوضع وصلت نجدات من المناطق المجاورة لتدعيم المجاهدين بينما ان اللفيف الاجنبى كان

لقد نشرت الجريدة اليومية « المجاهد » باللغة الفرنسية ملخصا قيما عن تلك العمليات (انظر أيام 24 الى 27 أكتوبر 1979) ـ وانظر أيضا :
Massu : La vrai Bataille d'Alger. Paris, 1974.

(22) Y. Courrière : La guerre d'Algérie. Paris, 1970, t. III, p. 41.

(23) Récits de Feu, témoignage sur la guerre de la libération nationale. Alger, 1977, 2e éd. p. 119 : La bataille de l'Ouarsenis.

يتدعم هو الآخر بنجدات متواصلة ونظرا الى عدد القتلى فان الهواء صار ملوثا والتراب مبللا بالدماء ٠٠ وبالفعل بلغ عدد الشهداء فى شهر ماي 500 وفى نهاية هذا الشهر اضطرت السلطات العسكرية الى أن تزرع الجبال بجنودها بحثا عن بقية المجاهدين وكان رد فعل بونعامة أن يتمثل فى ارسال رجالا من الكومندو فيقاتلون مع العدو بالسلاح الابيض ثم يغررون بأفراد فجأة وهكذا الى أن تدخل الطيران من جديد ٠

وفى الاخير وبعد ثلاثة أشهر من النار والدم تراجعت السلطات الاستعمارية عن مخططاتها الجهنمية بعد ما ان تكبدت خسائر فادحة فى الارواح والعتاد (اسقاط عدد من الطائرات المقاتلة والمقنبلة) وقد قدر عدد الشهداء بحوالى 1400 أي ما يمثل 3 من الفصائل فاكدوا بذلك ارادتهم وارادة المكافحين فى مواصلة الجهاد من أجل تحرير **الوطن** ٠

وهكذا يستطيع الآن المار بهذه المرتفعات أن يتأمل فى هذا التاريخ كلما وصل الى بعض القرى التى تحمل أسماء الكتائب البواسل مثل الازهرية (عين للو سباقا) والحسنية (وهي مقر بلدية انشئت فى أوائل الاستقلال وتقع شمال ثنية الاحد) والكريمية بسهل وادى الفضة ٠ وأملنا فى المستقبل القريب أن تشيد تماثيل فى أهم الاماكن تخليدا لارواح شهدائنا وبطولتهم وعبرة للاجيال الصاعدة وحتى ينتبه الى ذلك الكبير والصغير ، الامى والمتعطش لمعرفة الاحداث والتاريخ ٠

الخلاصة :

لجبال الونشريس مكانة هامة فى تاريخ الجزائر القديم والحديث فلقد كان وظل مهد كفاح مستمر ضد المحتلين والمستغلين وان كان هذا التاريخ الحافل بالبطولة والصمود لم يحلل ولم يصنف بعد بالرغم من كثرة العلامات والشواهد سواء كانت ترجع الى العصور الغابرة أو الى العهد المعاصر ٠

ورجاؤنا فى انتظار نشر الكثير عن هذا الماضى البارع أن تقوم السلطات المعنية بالامر فى أقرب الوقت بتشييد تماثيل تخليدا لبطولة وتضحيات شهداء حرب التحرير ، كما اننا نرجو تحقيق ذلك المخطط الذى أعددناه من أجل استصلاح أهم الغابات وذلك للحفاظ على تربة المرتفعات واحتراما لتلك السفوح التى تغذت من دم الشهداء والتى أعانت استمرارية الكفاح عبر العصور ، فضلا عن دورها الهام والفعال فى الحفاظ على التوازن الطبيعى ٠

وبهذه المناسبة نتقدم بمشروع آخر يندرج دائما فى هذا الاطار ويتماشى

وتوصيات اللجنة المركزية ، وهو تحويل ثكنة ثنية الاحد الى متحف يأوى فى اجنحته أسرار هذا التاريخ الطويل كما هو الشأن بالمتاحف الموجودة فى عدد كبير من بلدان العالم ، أي أنه يشتمل على كل ما يعبر عن الحياة الشعبية العادية (الادوات الزراعية ، الثياب ٠٠٠) والغير العادية (الاسلحة وغيرها) ٠

ونرجو الا تبقى هذه الاقتراحات مجرد حبر على ورق وان يلتفت اليها كل من يعنيه الامر بصفة مباشرة أو غير مباشرة والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ٠

الشهيد عبد الواحد الوانشريسي
955 هـ ـ 1549 م

عبد الرحمن الجيلالي

الوانشريسي بالنون وشينين معجمتين كما ضبطه ياقوت الحموي أو ونشريس بالسين المهملة في آخره مع فتح الشين الاولى أو كسرها ، ويمد الواو أو حذف المد ، أو كما ينطق به العامة (وارسنيس) فهو دائما اسم لذلك العلم الشامخ المرتفع من الاطلس ألتلي بالشمال الغربي من أرض الجزائر المجاهدة ، أو نقول هو ذلك الجبل الباذخ الذي يتراءى لك شمال نهر شلف وجنوب غربي عاصمة الجزائر (دار الجهاد) كما كانت تسمى وتعرف به من قبل ولا تزال • يمتد فيما بين مدينة مليانة شرقا وتلمسان غربا وتبلغ قمته الى مرتفع عال جدا (1985 مترا) وصدق من سماه (عين الدنيا) وهو الاسم الذي يطلق على هذا المكان الى الآن ؛ فهو بحق العين المبصرة التي كان المجاهدون في حرب التحرير المتحصنون والمحتمون بهذا الجبل يبصرون العدو من هذا المكان على بعد منهم فيقضون عليه ، فكانت لهم هذه العين (عين الدنيا) كعين الزرقاء ـ زرقاء اليمامة ـ أو أحد ، وهكذا قل في التاريخ الماضي ايام توغل الاستعمار في الوطن : فكانت هناك معركة وانشريس 1846 م وبناحية فليتة وحوض الشلف ، ومعركة خنقة العازر الشهيرة وتخريب معسكر الرحوية (1864 م) الخ •••

وهو الى ذلك موقع جميل ممطر ومنتج يكثر فيه العشب والكلأ علاوة على ما يحويه من كنوز طبيعية وثروة منجمية ثمينة •

ومن أشهر العشائر به : عشيرة بني وعزان ، وشوشاوا ، وبني هندل ، وتاملاحت ، وأولاد بو سليمان ، وحرشون وأولاد غالية •••

ولقد كان لهذا الموقع من تراب الجزائر تأثير عظيم في تطوير الحياة العامة بالجزائر ، سياسيا وعقليا واقتصاديا ، فهو كما أنه كان قلعة حصينة للجهاد بالسيف فهو الى ذلك قلعة ورباط حصين

للمنقطعين للجهاد فى سبيل العلم والمعرفة فكنا لذلك كثيرا ما نجد فى تراجم رجال الثقافة والحصافة والذكاء بالجزائر من ينتسب الى هذا الموقع ، فهذا أبـو محمد عبد اللـه بن محسن الونشريسى الملقب بالبشـير ، صاحب ابـن تومرت مهـدى الموحدين ، وهـذا سحنون بـن عثمـان الميـدوى الونشريسى صاحب كتـــاب : « المحتاج » الذى شرح به نظم السراج فى عـــلم الفلـك للشيخ عبـد الرحمن الاخضرى ـ مطبـوع ـ وأبـو الـربيع سليمان الونشريسى كان يقرىء التفريع لابن الحلاب والمدونة ، وكان يقوم عليهما أتم قيام ، وهذا القاضى أبو على الحسن ابن عثمان بن عطية الونشريسى ، ذكـره لسان الدين بن الخطيب فى (نفـاضة الجراب) فقال : « كـان فقيها عدلا مـن أهـــل الحساب والقيام عـلى الفرائض والعناية بفروع الفقـه ، وكان يقـرض الشعر ، له أرجوزة فى الفرائض مبسوطة العبارة مستوفاة المعنى » . قال التنبكتى : وقفت على رجزه فى الفرائض وهو حسن سلس ، وله الى ذلك فتاوى نقـل بعضها أحمد بـن يحيي الونشريسى فى كتـابه المعيـار .

وهذا عمه الحسن بن عطية ذكـره الاحمر فى فهرسته فقال : شيخنـــا الفقيه المفتى المدرس القاضى الفرضى الاديب الحاج أبو عـلى بن الشيـخ الصالح عطيـــة الونشريسى ، قال : وأجـــازنى فى المـوطـأ رواية يحيـى ابن يحيى ...

واشهر الجماعة اثنان ، هما أحمـد الونشريسى وولده عبد الواحد ـ الشهيد فالاول هو أحمد بن يحيى الونشريسى حامل لواء المذهب عـلى راس المائـــة التاسعة ، عرف به المقرى فى مواضع من كتابه نفح الطيب فقال : « هو شيخ شيوخ شيوخنا الامام الكبير المؤلـــف الشهير عالم المالكيـــة سيدى أحمـــد الونشريسى صاحب التآليف العديـــدة كالمعيار والجامع المغـــرب فى فتـــاوى افريقيا والاندلس والمغرب ، وهو فى ست مجلدات (طبع فى 12 مجلـــدا بفاس 1314 هـ) ، قال ولو لم يكن له غيره لكان كافيا ، وله مصنفات كثـيرة غيره أكثرها فى مذهب مالك ولم يؤلف فى المذهب مثلها . ذكرها صاحب جذوة الاقتباس ، ولم يطبع منها سوى المعيار وكتاب الولايات ـ ترجم الى الفرنسية .

وحكى عنه المنجور فى فهرسته فقال : « كان مشاركا فى فنون من العلم الا أنه لازم تدريس الفقه ، يقول من لا يعرفه انه لا يحسن غيره . وكان فصيح اللسان والقلم حتى كان بعض من يحضره يقول : لو حضره سيبويه لاخذ النحو من فيه .

كان مسكنه تلمسان فنقمت عليه الحكومة الزيانية بتلمسان أمرا فانتهبت داره ففر الى مدينة فاس فى أوائل شهر المحرم سنة 874 هـ/1469 م ، فأقام بها منكبا على كتاب المدونة وفرعى ابن الحاجب فى فقه المالكية ، تخرج به جماعة هم اساطين الفقه المالكى بالمغرب العربى ، منهم عبد السميع المصمودى، ومحمد بن عبد الجبار الورتديغى ، والقاضى محمد بن الغرديس ، وآخرون ... وتوفى رحمه الله بمدينة فاس يوم الثلاثاء 20 صفر 914 هـ - 1508 م .

والثانى هو ولده الشهيد عبد الواحد ابن أحمد الونشريسى ؛ ولد رحمه الله بعد سنة 880 هـ ، فأخذ عن والده وعن أعيان علماء المغرب الاسلامى فى عصره، كالشيخ ابن غازى ، والهبطى ، والحباك، وابن هارون ، والزقاق ، واضرابهم ... وبرع فى علوم الشريعة والادب ، وكان رائق الخط فصيح العبارة فائق الانشاء لا سيما فى انشاء الخطب ، فانه كان آية فى انشاء الخطب البليغة ، فيكتب بدون تكلف ، وشاعرا أيضا ، متقدما فى الوثائق والمكاتبات عدلا مهيبا ذا سمت وتؤدة وسكون ، قويم الطبع ورفيقه يهتز لسماع الالحان وآلات الطرب مع الورع والدين المتين يقول الحق ويصدع به ولو كان فى ذلك حتفه ، بهذا يصفه علماء التراجم فيما ذكروه به .

اتفق انه كان فى يوم عيد ينتظر مع المصلين خروج السلطان ابى العباس المرينى لصلاة العيد ، فتأخر خروج السلطان حتى حان وقت صلاة الظهر ، فحين خرج السلطان رقى عبد الواحد الونشريسى المنبر فخطب الناس قائلا : أيها الناس !.. عظم الله أجركم فى صلاة العيد !.. ثم أمر المؤذن ان يؤذن لصلاة الظهر ، فصلى بهم الظهر وانصرف ولم يراع فى ذلك سلطانا ولا غيره .

وكان فيما تولاه رحمه الله تعالى من المناصب الشرعية القضاء مدة ثمانية عشر سنة ثم تولى الافتاء بعد وفاة شيخه ابى هارون .

ولما توفى والده (914 هـ/1508 م) قدمته الجماعة ليقوم مقام والده فى التدريس بالمدرسة المصباحية بفاس ، فأقرأ بها التفسير بنقل ابن عطية والسفاقسى ومواضع من الزمخشرى ، ومن الرصاع على المغنى ، والبخارى بشرح ابن حجر مستوفيا له لانه شرط المحبس ، وابن الحاجب بالتوضيح من غير استيفاء مع زيادة طرر أبيه ، وحضر درسه ابن غازى واليسيتنى وعبد الوهاب الزقاق فأثنوا عليه .

وأغلب انتاجه العلمى كان فى علم الشريعة والفقه ، فله شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعى فى أربعة اسفار ، وشرح على رسالة ابن ابى زيد القيروانى وفتاوى محررة ، وخطب بليغة ونظم كثيرا فى مسائل من الفقه ، كشهادة السماع ، ومفوتات البيوع الفاسدة، وما تفتيه حوالة السوق ، وتعليق على صحيح الامام البخارى لم يكمل . ومواضع الاقالة فى البيع ، ونظم قواعد أبيه : ايضاح المصالك مستوفياء وزادها قواعد بأمثلتها وصورا ومثلا انتزعها من مختصر ابن عرفة ولم تتم الزيادة وهى مشروحة بقلم التنبكتى ، وله أزجال وموشحات ...

ولم يزل عبد الواحد رحمه الله سائرا على الخطة الرشيدة قائما بالعدل ناصرا للحق ناشرا للعلم الى ان فاز بالشهادة فى سبيل كل ذلك .

لقد كان المغرب الاقصى فى أواخر القرن التاسع الهجرى ـ أواسط السادس عشر الميلادى ، يمر بأزمة سياسية قاسية اذ كان محل نزاع وخلاف قائم على التنازع على السلطة بين دولة الوطاسيين القائمين يومئذ على الحكم وبين مزاحميهم السعديين ، فاستولى هؤلاء السعديون على مراكش عاصمة الجنوب سنة 935 هـ/1529 م ، وذهبوا ليستولوا على مدينة فاس فاستعصت عليهم ، فضيق الحصار عليها السلطان ابو عبد الله محمد المهدى الشيخ (السعدى) فلم يفلح وعسر عليه الامر ، فبحث عن السبب فقيل له : لا سبيل لك اليها ولا يبايعك أهلها الا اذا بايعك ابن الونشريسى يعنون : الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الواحد ابن أحمد الوانشريسى رحمه الله ، فبعث اليه السلطان المذكور سرا ووعده ومناه ، فقال له الشيخ عبد الواحد : « بيعة هذا السلطان يعنى أبا العباس الوطاسى فى رقبتى ولا يحل لى خلعها الا لموجب شرعى وهو غير موجود . ولعل الشيخ فى ذلك متمسك بما رواه مسلم فى صحيحه على النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : من بايع اماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع ، فان جاء آخر ونازعه فاضربوا عنق الآخر .

ويقال ان السلطان السعدى كتب الى أهل فاس يقول لهم : « انى ان دخلت فاسا صلحا ملاتها عدلا ، وان دخلتها عنوة ملاتها قتلا » . قالوا فأجابه الونشريسى بابيات تمثل بها وهى من نظم شاعر اندلسى من طليطلة جاء فيها هذا البيت :

كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا

ولا علم الرحمن من قولك الفضلا

ولما بلـــغ ذلـك السلطان حقـد عـلى الونشريسى ودس الى جماعة من المتلصصة بان يأخذوه ويأتوا به الى محله محبوسا من غير قتل ، وكان الشيخ فى ذلك الزمن يقرأ صحيح البخارى بجامع القرويين بين العشائين وينقل عليه كلام ابن حجـــر « فتـح البارى » ويستوفيه لانـه شرط المحبس ـ انظـــر كيف كـان النـاس يحترمون الحبس ـ فقال له ابنه : يـا أبى انى قد سمعت ان اللصوص أرادوا الفتك بك فى هذه الليلة ، فلو تأخرت عن القراءة » فقال له الشيخ : أين وقفنا البارحة ؟٠٠ قال : على كتاب القدر ! قال : فكيف نفر من القدر ؟٠٠ اذا اذهب بنا الى المجلس ٠

وهذا يذكرنا بذلك المـوقف الرهيب الذى وقفه قبله سلطان العلماء وبـــائع الملـوك العـز بن عبد السـلام 660 هـ 1262 م تجـاه أمـراء وسلاطين دولـة المماليك بالمشرق حـين صارحهم بانهـم ليسوا كلهم بأهل للامارة والملك وانهم عبيد أرقاء لا يصلحون لمزاولة الحـــكم والامارة بل لابد من عرضهم فى السوق للمزيد ٠٠٠

وذات يوم كان باب الدار الذى يقطنها الشيخ يرتج تحت طرقات عنيفة وسارع ولد الشيخ ففتح الباب وها له ما رأى : كان نائب السلطنة واقفا وسيفه فى يده والشرر يتطاير مـن عينيه والدم يكـاد يتضجر من وجهه ، ومن خلفه كتيبة من جنده وانصاره ٠

وغاض الدم فى وجـه الغـلام فارتد فزعا الى أبيـه يخبره بما راى ، ويكـاد يهتف : انج بنفسك يا أبى ! وفهم الشيخ ما يريد ولده ، فقال له فى تؤدة واطمئنان يا ولدى !! أبوك أقل مـن ان يقتل فى سبيل اللـه !!

وظهـر الشيخ فى البـاب واستقبل نائب السلطنة بكـل سكينة ووقـــار ، وحينما رآه النائب ارتعد وارتعش السيف فى يده فسقط على الارض وبكى النائب ، وسأل الشيخ الدعاء الى آخر القصة ٠٠٠

وهكذا فعل الونشريسى فذهب كعادته الى مجلسه فى جـامع القرويين واخذ مجلسه على الكرسى الخاص الذى أسسه السلطان أبو العباس أحمد بن الشيـخ الوطاسى 956 هـ/1549 م ليجلس عليه مدرس صحيح البخارى والقى درســـه كالعادة وهو فى ذلك يصول ويجول حتى انتهى من درسه وافترق الناس وتهيـــأ الشيخ للخروج من المسجد من بـــاب

الشماعين فوجىء من طرف الجماعة المهيأة لتمثيل الجريمة فألقت عليه القبض وحاولت اخراجه من الباب المذكور وكان يسمى كذلك بباب الفخاريين وارادوا حمله فاستمسك الشيخ باحدى عضادتى الباب فضرب احدهم يده فكسرها أو قطعها ؟.. وأجهز الباقون عليه فقتلوه بباب المسجد المذكور يوم 27 ذى الحجة 955 هـ/27 يناير 1549 م فمات رحمه الله شهيدا،وكان أمر الله قدرا مقدورا ، خير الشهداء كما قال صلى الله عليه وسلم : حمزة بن عبد المطلب ، ثم رجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فى ذات الله تعالى فقتله على ذلك . ومن يومئذ عرف هذا الباب من بين أبواب القرويين باسم باب الشهيد كما اشتهر كرسيه هذا باسم كرسى الونشريسى .

وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه كما قيل ، فقد ذكر أبو العرب فى كتاب المحن انه لما أراد عبد الملك بن مروان ان يكتب العهد لابنه الوليد ، قيل انه : لا يتم لك هذا الامر الا بابن المسيبة فاكتب له ، فكتب له ان يبايع ، فرد اليه : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نبايع لخليفتين ، فان أردتها لابنك ، فاخلع نفسك ، والا فلا . فكتب عبد الملك الى عامل المدينة هشام بن اسماعيل المخزومى : ان لم يبايع فاضربه مائة سوط . فضربه مائة وحلق رأسه ولحيته وكساه تبانا من شعر ، ونادى عليه ، وطيف به الى الليل ... وكان أيضا قبل ذلك ضربه جابر بن الاسود والى المدينة على البيعة لابن الزبير فضربه ستين سوطا ودعاه هشام بن اسماعيل أيضا الى البيعة للوليد وسليمان بالعهد فلم يفعل فضربه ستين سوطا وطاف به فى المدينة فى تبان من شعر ، وقد وقع لمالك وأبى حنيفة شبيه بهذا ...

وصدق الله العظيم : **ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون .**

المــراجــع

ابن القاضى ـ أحمد بن محمد : درة الحجال ـ القسم الثانى ط الرباط 1936 م

التازى ـ عبد الهادى : جامع القرويين ج 1 ، 2 ط بيروت 1973 م

التنبكتى ـ أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ط القاهرة 1329 هـ

الجيلالى ـ عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام ، ج 2 ط الجزائر 1955 م

الحجوى ـ محمد بن الحسن : الفكر السامى ، ج4 ط فاس بدون تاريخ

السبكى ـ عبد الوهاب : طبقات الشافعية الكبرى ، ج 5 ط القاهرة 1324 هـ

المقرى ـ أحمد بن محمد : نفح الطيب ، ج 5 ، 7 ط بيروت 1968 م

المقرى ـ أحمد بن محمد : أزهار الرياض ، ج 3 ط القاهرة 1942 م

الناصرى ـ أحمد بن خالد : الاستقصاء ج 5 ط الدار البيضاء 1955 م

الونشريسي

عمار الطالبي

من علماء الجزائر الاعلام ، وفقهائها البارزين في القرن التاسع الهجري أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني الذي نشأ في عصر تكالبت فيه الاعداء على سواحل الجزائر وخاصة وهران في الناحية الغربية من المغرب الاوسط ٠

اذ ان سنة وفاته وهي 914 هـ (1508 م) هي السنة التي استولى فيها الاسبان على مدينة وهران (1) ٠

شيوخه :

من الاساتذة الذين أخذ عنهم العلوم الاسلامية أبو الفضل العقباني ت 854 هـ وابنه أبو سالم العقباني ، ت 880 هـ وابن مرزوق الكفيف ت 901 ٠

ونظرا لاضطراب الحياة السياسية وانتشار الاستبداد السياسي فان السلطة السياسية في ذلك الحين ضايقته فنهبت داره في سنة 874 هـ بمدينة تلمسان التي نشأ فيها وما كان منه الا ان التجأ الى مدينة فاس وأقام بها (2) ، وانكب في مدينة على تدريس المدونة ، وكتب ابن الحاجب وكان متمكنا من الفقه المالكي مشتغلا به تعليما وتأليفا وفتيا كما أنه اشتهر بالنحو وفصاحة اللسان والكتابة ٠

تلاميذه :

من تلاميذه ابنه عبد الواحد ت 955 هـ وأبو زكريا السنوسي ومحمد بن عبد

---

(1) أبو القاسم محمد الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، الجزائر 1334 هـ (1906 م) ج 1 ص 59 ٠

(2) المصدر نفسه ج 1 ص 58 ٠

الجبار الورتدغيري (3) ومحمد بن عيسى المقيلي ت 875 هـ ومن أبرز تلاميذه أيضا الفقيه القاضي محمد بن الغرديس التغلبي ويذكر المؤرخون ان خزانة هذا الفقيـه الاخير من تلاميذه كانت له خزانة عظيمة من المؤلفات وان الونشريسي استفاد منها كثيرا في تأليف كتبـه وخاصة كتـابه المعيار الذي هيأت له هذه المكتبة الفتاوى الخاصة بفقهاء فاس وفقهاء الاندلس ·

ويـذكر الحفناوي انـه استفاد مـن نوازل البرزلي والمازوني فيمـا يتعلـق بفتاوى افريقية (تونس) وفتاوى فقهاء تلمسان كما يبدو ذلك لمن قارن كتـابه هذا بهذه الكتب ·

تـآليفه :

من أهم تآليفه المعيار المعرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب في ست أسفار وقد طبـع بفاس طبعه مجرية في 12 مجلـدا ويجرى الآن طبعـه (4) في صورة محققة واضحة ·

جمع في هذا الكتاب فتاوى ونوازل ونصوصا ذات أهمية بالغـة في معرفة الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية والاقتصادية في المغـرب والاندلس في عصور مختلفة ·

ومـن تآليفه تعليق عـلى ابن الحاجب الفرعي في ثلاثة أسفار (5) ·

ومنها : كتاب « القواعد » في الفقـه المالكي ، وكتاب « الفائق في الوثائق » يقال انـه لـم يكمله ، ومنها عثر عـلى وثائق القشتالي وعنوانه : « غنية المعاصر والتالي عـلى وثائـق القشتالي » وكتاب « الفروق » في الفقه عـلى نمط الفروق للقرافي · ومنها اضاءة الحلل في الرد على من أفتى بتضمين الراعي المشترك ·

وتولى منصب الافتاء بفاس (6) التي هـاجر اليها ويـذكر البغدادي صاحب هدية العارفين ان وفاته كانت بمـدينة تلمسان واذا صح هذا فانه يكون قـد عـاد اليها وتوفي بها عـن سـن يناهز الثمانين ويحتاج كتابه المعيار الى دراسة خاصة نظرا الى قيمته التي لا تقدر ·

---

(3) ويكتب أيضا الورترغيري ·

(4) تبعا لمـا أخبرني به الاستاذ الحبيب اللمسي الذي يتـولى هـذا العمل ، جزاه اللـه خيرا ·

(5) المصدر نفسه ج 1 ص 59 ·

(6) مخلوف ، الشجرة الزكية في طبقات المالكية ·

في موكب الخالدين

سي محمد قائد الولاية الرابعة

محمد الصالح الصديق

ليس في الوجود أجمل من الحرية ولا أغلى منها ٠ فبالحرية يكون الانسان : يكون بجسمه وعقله معا ٠ يشعر بوجوده في هذه الحياة ، ويحس بمعناه ، لانه يستطيع ان يؤدي رسالته كآدمي لم يخلق لما خلق له الحيوان الاعجم ، بل خلق لغاية اسمى واجل ٠

فالأنسان بدون الحرية يعيش طول عمره كانه لم يعش يوما واحدا ، لان العبرة في الحياة ليست في أن يأكل الانسان وينام ويعقب خلفا ، فهذا قدر مشترك بينه وبين سائر الحيوانات بل العبرة أن يعيش في الوجود نفسا من حياة ، وجزأ من كيان ، ولبنة في صرح ، ودفعة من دفعات التاريخ ٠

فهذا لا سبيل اليه الا بالحرية ، الحرية التي لا معنى للصحة والغنى والعلم الا بها ٠ ولا معنى للشمس المشرقة والقمر المنير الا بها ٠

وماذا تجدي الصحة ويجدي العلم والمال اذا كان المرء عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ، ولا يتصرف في نفسه ولا فيها يملك ؟

وأي وجود للشمس المضيئة والقمر المنير اذا كانا لا ينيراه النفس ، ولا يبددان ظلام البغي والاضطهاد ؟

في داخل المحرومين من الحرية ، سحب متلبدة ، وظلمات حالكة دامسة ، لا تبددها ولا تقشعها سوى الحرية وفي أعماق النفوس جراحات لا دواء لها الا الحرية ٠

ولكن الحرية صعبة المنال ، غالية الثمن ، والطريق اليها طويل شاق ليس مفروشا بالورود أو محفوفا بما لذ وطاب بل هو صعب مهول مفروش بالجماجم والاشلاء ، مملؤة بالدموع والدماء ، لا يسلكه الا عشاق الحرية ، المفتونون بحبها ، الذين يستهينون بالزعازع والاهوال ، والجوع والبرد ، من أجلها ٠

وقد يطول الطريق ، بهؤلاء العشاق ويقسو عليهم وتشوى اجسادهم السنة

اللهب ، ولكنهم لا يبالون ، لانهم يعلمون ان التضحية والفداء والعذاب هي مهر الحرية •

ويواصلون الزحف وفي اعماقهم ايمان يفجر العزم ، ويجدد الهمة ، ويعطي القوة ، ويضاعف الاصرار ، ونشيدهم قول الشاعر العربي :

لن ينال الحقوق الا أباة
يتحدون معجزات الطغاة
هي حرب الحياة اما حياة
أو ممات يكن معنى الحياة

ويهتف الشهداء للموت ، ويسقطون في الميدان وقلوبهم تصفق بين الضلوع للحرية والاستقلال ، وترفرف الاعلام على نعوش الضحايا مودعة ومبشرة • فاذا بعشاق الحرية يندفعون من جديد بايمان أقوى ، وعزيمة امضى ، واذا الطريق كانه ورود مفروشة ، تحت ظلال ممدودة ، الى فجر وضيء •

واذا كان الطريق الى الحرية هذا شانه ، ومهر الحرية هذا غلاؤه ، وهذا ثمنه ، فان الطريق الذي سلكه الشعب الجزائري الى الحرية كان أشق واطول ، والحرية التي نالها كانت أغلى واثمن •

فالشعب الجزائري لم يفتأ يواصل الجهاد منذ سنة 1830 م الى سنة 1962 م ضد القوات الاستعمارية الغاشمة ، وقاسى خلالها من ألوان الظلم والتعسف والهوان ما لا ترتقي الى وصفه البلاغة والبيان ، وقدم خلال ثوراته المختلفة ملايين الشهداء •

وفي هذا الطريق الطويل الشاق ، اعلام مجد تخفق على شواهق تاريخنا الجليل ، وما اعلامنا الا أولئك الشهداء الذين ماتوا لتحيا الجزائر سواء في ثورة نوفمبر الخالدة أو في الثورات الاخرى التي سبقتها •

ولعل المدهش بحق ، الباعث على العجب والاعجاب ، ان ابطالنا الذين حرروا الجزائر ، وصمدوا لقوات الحلف الاطلسي ، ولقنوا الجيوش الاوروبية أقسى درس في الشجاعة ، رجال بسطاء لم يتخرجوا من مدرسة ، ولم يتدربوا على أسلحة ، ولم يتوفر لهم من العتاد والعدة ولا من الطعام واللباس ، ولا من الظروف الحربية الضرورية، ما يمكنهم من مواجهة الجيش الفرنسي ساعة واحدة ، وكيف بالحلف الاطلسي طوال سبع سنوات ونصف سنة •

ولكنه الايمان القوي ، والعزيمة الصادقة ، والاصرار على التحرر •

وسمة أخرى امتاز بها المجاهد الجزائري ، وهي انه ما ان يحتضنه الجبل

وينضم الى خلية من خلايا جيش التحرير الوطنى ، ويتأهب للنزول الى الميدان حتى يتحـول الى شخص آخـــر ، تفكـيرا ، وسلوكا ، وأخلاقا ، ولم نعرف فى جيش التحرير مجاهدا رخو الارادة ، أو مهزوز الايمان ، أو سقيم النفس •

اما الشجاعة فقدر مشترك بين جميع المجاهدين حتى قيل « ان البطولة فقدت وصف (الميزة النادرة) فى الجزائر فلم تعـد مبعث فخر واعتزاز لانها أصبحت شيئا فشيئا مشاعا بين كل فرد من أفراد الشعب تقريبا ، يحمل بين أطوائه قصة كفاح ، وحكاية نضال ، وتاريخ صمود» .

وهذه الخصائص والمميزات التى يتسم بهـا المجـاهد الجزائـرى : البسـاطة ، والشجاعة ، والتحـول الجذرى السريع بمجرد انتظـامه فى سلـك الثـورة ، لا حظناها فى كـل شخصية قدمناها أو قدمها غيرنا فى صحافتنا أو على أمـواج الاثـير حتى انها لتعد المحاور الرئيسية التى يدور عليها الحديث •

وعـلى هذا النسق وفى هـذا المنهاج نتناول اليـــوم هذا البطل المغـــوار ، والوطنى الصادق ، قائد الولاية الرابعة سى محمد •

عـرف قبل اندلاع الثـورة التحريرية بحب الوطن والاخلاص له ، وكان يتلهف ظما وشوقا الى الحرية ، ويعـد الحياة تحت العلم الاجنبى ، وفى ظل الاحتلال ، وجودا بـلا معنى ، وحسابا بلا ثـواب ، وسعيا بلا هدف ، وتاريخا بلا عنوان •

وبالرغم من أنه لم يلتحق بالثـــورة الا فى أواخر سنة 1955 الا انـه كان كالبركان يهدر بين المناضلين الاحـرار بقوة الارادة ، ومضاء العزيمة ، وبغض المستعمر •

وكان ممن يؤمنون بحتمية الاستقلال ، لان حتميـة التاريخ ستقف لا محالة الى جانب الثوريين الاحرار ، الذين يشقون الطريق الى الحرية ويسقطون ضحاياها •

التحـق القائد سى محمد بالثـورة فى أواخر سنة 55 وبفضل ما امتاز به من الشجاعة النادرة ، والعزيمة الصادقة ، والسلوك الاخلاقى القويم ، لم تمض الا اشهر قليلة حتى برز كمدرب وقائد فى منطقة « الونشريس » بالولاية الرابعة •

واستمر فى هذه المهمة مدة طويلة قبل تعيينه عضوا فى قيـادة الولاية بـرتبة رائـد •

واشتهـــر سى محـمد فى الاوساط الثورية بالتفكير المرتب الهادف ، والنظرة البعيدة ، ورحابة الصدر ، وسعة الافق ، والتواضع الجم ، مما جعل لـه شخصية محترمة تميل اليها النفوس ، وتنصاع

لهـا القلوب ، وتنفـذ أوامرها بـرغبة لا برهبة .

وكانت النظرية التى تشغـل تفكيره دائما وعرف بها وكان يختط لها دومـا ويدعو اليها زمـلاءه الثوريين هـى : « انهاك العدو وتحطيمه » ولذلك كـان يقرأ الف حساب لمواجهة العدو ، لا لان العـدو يملك قـوة كبيرة لا تستطيع مواجهتها الا قوة مثلها ، بل لانه كـان يهدف الى الحاق أكبر خسارة بالعدو ، وهـذا لا يتأتى الا بالتنظيم والتخطيط والتاهب الكامل ، فكان سى محمد لا يقوم بكمين ، أو هجوم ، أو معركة ، الا بعد ان يضع لها خطة حربية محكمة ، ويعد لها العـدة الكافية ، ولا يكتفـى بالانتصار والغلبة على الاعداء ، بل يضع فى حسابه قبل النزول بكتائبه الى الميدان ان يبيدهم عن آخرهم ، ويغنم أكثر ما عندهم مـن العتاد الحربى ان لم يكن كله .

وهذه النظرية التى تستبد بمشاعره كان لهـا الاثـر الكبير فى كـل معركة يخوضها ضد القوات الفرنسية ، فعزمه على الابادة الكاملة ، وتعبئة كتائبه بهذه الروح ، واقدامهم عـلى المعركة يدفعهم هذا العزم ، كل ذلك يجعلهم يستبسلون فى الميدان ، ويثبتـون ، ويصمدون ، ويواصلونها فى فدائية مذهلة ، وأفـق متأجج ملتهب حتى ينتصروا .

وكان القائد سى محمد يوصى كتائبه قبل الاقدام على خوض المعركة بالتأهب التـام ، واليقظة الدائمـة ، وتـوجيه الضربات الساخنة الماحقة للعدو ، وكان يقـول لهـم بالخصوص : ان المجـاهد القـوى ، والوطنى الصادق ، لا يعـرف التردد ولا الاحجام ، ولا يتطرق الى نفسه خوف ، لانه يعلم ان أمامه احدى الغايتين اما النصر أو الشهادة ، فاذا قدر له الموت فذلك شرف له ولعائلته لانه مات مـن أجل وطنه ومن أجل عزته ودينه ، فخير المجاهدين من يجعل نصب عينيه النصر أو الشهادة .

وكان القائد سى محمد يحتل مكـانة فذة فى قلوب المجاهدين الذين يسيرون معه على الدرب الصاعد ، لانه كان عـالى الهمة ، عظيم النفس ، كريم الاخلاق ، محبا بجنوده ، عطوفا بهم ، موثرا لهـم على نفسه ، لا تفارق البشاشة وجهه حتى فى الظروف الحالكة العصيبة ، وكـم ضحـك والامـور ملتوية ، والطـرق مسدودة !

أمـا مـن يشاهده فى المعركة فانـه تستبد به الدهشة اذ يراه مع العـدو شخصا آخر ، صرامة ، وقوة ، وعنادا ، واصرارا ، وقساوة وهكذا فمن يعرفه فى السلم يستبعد ان يكون رجـل حرب بتلك الصرامة والقساوة ، ومن يعرفه فى

المواجهات الحربية يستبعد ان يكون رجل سلم بتلك الليونة والمؤالفة .

وحياة القائد الشهيد سى محمد كانت منذ أن انضم الى جيش التحرير الوطنى سلسلة من العمليات العنيفة الناجحة متواصلة الحلقات ، وكان القادة العسكريون الفرنسيون فى نواحى الونشريس يعرفون عنه الشىء الكثير ، وكانوا أيضا يقرأون ألف حساب لكمين ينصبه أو معركة يخوضها ، ويحلمون دائما باليوم الذى يتخلصون فيه منه بقتله أو القبض عليه ، وكم حاولوا ذلك ووضعوا خططا محكمة ، ولكنه كان زئبقا كما كان العقيد عميروش فى الولاية الثالثة ، يظهران ثم سرعان ما يذوبان !!!

وظل يواصل مقاومته العنيفة بلا كلل أو ملل أو ضعف ويلحق الخسائر الفادحة النكراء بالعدو ، ونصب عينيه دائما النصر أو الشهادة حتى كانت ليلة الاثنين 7 أوت سنة 1961 .

فى هذه الليلة كان الشهيد البطل مع فرقة صغيرة من جيش التحرير الوطنى فى (فلا) روفاتيل كوربى ، بقلب البليدة وفى حدود الساعة العاشرة كانت (الفلا) مطوقة بقوات من جنود المظلات الفرنسيين . وعندما أخذوا فى محاولة الدخول اليها فتحت عليهم سيول من الرصاص وتواصلت مدة طويلة سقط تحتها عدد من الجنود الفرنسيين .

« وأمام المقاومة العجيبة والاستماتة الغريبة التى ابدتها فرقة جيش التحرير الصغيرة التجأت قوات العدو ـ كعادتها ـ الى الاستنجاد بالمصفحات والمدفعية .

وفى هذه المعركة العنيفة صمد سى محمد مع رفقائه صمودا قاهرا حتى النفس الاخير ، أمام الهجومات الوحشية الضارية التى كان يواصلها جنود فرنسا الاستعماريون فى جنون متكالب .

ولما تحطمت الدار أبدى أبطال جيش التحرير شجاعة خارقة من نوع آخر ، فقد التحموا بقوات الاستعمار ، واستعملوا معهم السلاح الابيض ، واستطاعوا ان يكبدوهم أفدح الخسائر فى الارواح ، وسقط سى محمد ورفقاؤه شهداء الحرية ، وكتبوا بدمائهم الزكية وثيقة الشهادة ووثيقة الحرية .

وما ان ذاع نبأ استشهاد سى محمد حتى عم الحزن سائر أوساط جيش التحرير الوطنى وتملكهم هول المصاب ، وراحوا يتندرون بقصته البطولية الرائعة التى جعلها ختاما لتاريخه الثورى الرائع ، وكلهم يعاهدون روحه وأرواح رفقائه الابطال على مواصلة الجهاد بنفس

العــزيمة والاصرار حتـى النصر أو الشهادة ·

واصدرت قيادة الجيش الوطني للولاية الرابعة منشورا اثر استشهاد البطل سى محمد جاء فيه :

ان عظمة روحك ، وان أخوتك وحبك اللا متناهي لشعبنا البطل الذى كـان يعـرف كيف يتـدبر ويقـدر محامدك ومزاياك ، وان ضحكتك الدائمة ، ضحكة وجهك المشرق البشوش ، كل ذلك جعل منـك فى جيش التحرير الوطنى وفـى الشعب أخا لا ينسى أبدا ·

وان وعيك العميق ، وتفهمك الدقيق ، اللذين كنت تفصل بهما أعوص المشاكل وان الارادة الحديدية التى كانت تغذيك وتبرزك عـلى رأس الفـرق المسلحة فى الولاية ، ان ذلك قد طبع المعركة العنيفة ، والمقاومة الصامدة التى كنت تجابه بهـا ـ بكل بطولة وانتصار ـ قوات العدو ، تلك القوات التى احرزت ضدها عـلى انتصارات لا تحصى ·

وبقدر ما كنت طيبا لينا مع شعبنا ومع جيش التحرير الوطنى بقدر مـا كنـت صارما وعنيدا مع القوات الاستعمارية ·

ان الكتائب الصاعقة التى كنت تسيرها ضد جيش الاجرام والضربات القاصمة التى كنـت تنـزلها بالجنرالات والكولونيلات الفرنسيين ضباط الصالونات والخيبات المحرقة التى كنت تكبدهم اياها ـ كـل ذلك جعل منك قائدا بطلا ·

« يا خير خلف لاحسن سلف :

يا خليفة الكولونيل سى محمد ، لقـد عرفـت بتبصرك ويقظتك كيف تواصل كفاح الولاية الرابعة ، سواء فى ميدان العمليات العسكـرية أو فى الميـدان السياسى ·

لقد عرفت كيف تزرع الفوضى والخيبة فى صفوف الضباط الاعداء ·

ولقد عرفت كيف تموت · وانا سنتبع خطاك فى الطريق التى سطرتها لنا حتى ننتصر أو نلتحق بك فى جنة الخلد (1) ·

ذلك ـ عزيزى القارىء ـ قائد الولاية الرابعة ، البطل الشهيد سى محمد الذى وهب روحه عن ايمان وثقة ووعى من أجل ان تستقل الجزائر ، ومن أجل ان تحيا الاجيـال الحاضرة والمستقبلة ، عزيـزة كريمة ، والذى أضاف بمواقفه البطولية صفحة رائعة مشرقة الى تـاريخ الجزائر المجاهدة ·

واذ نحيى من حين لآخر ذكرى شهيد من شهداء الحرية ، انما نحيى فى شخصه ذكـرى كـل الشهداء ، الابطال الذيـن عاهدوا الله على ان يهجروا النوم اللذيذ وأنس الحبيب ، وحياة الامن الى الشهر ،

والتعب ، والهنى ، الى الجوع والعطش والموت من أجـل تحرير الجزائر . ومن أجـل تسـوية الظهـور المقوسة ورفـع الرؤوس المطأطأة ، واطـلاق الارجـــل المصفدة .

وسيبقى شهداؤنا الابطال الذين حققوا بكفاحهم البطـولى وتضحياتهم الغـالية أعظم نصر ، (اعـلام مجـد تخفق عـلى شواهق التاريخ الجزائرى ، ومنائر تهدى مواكب النضال الزاحفة الى غد أفضل) .

الاسقف لافيجرى ونشاطه التبشيرى في وادى شلف 67 - 1592 م

د. أبو عمران الشيخ

1 ـ سياسة الغزو والادماج :

صرح عد من الشخصيات العسكرية والدينية الفرنسية بأن احتلال الجزائر وحده لا يكفى . فينبغى أن يدعم بادماج الجزائريين في المجتمع الفرنسى من ناحية وتنصيرهم من ناحية أخرى ، وان كان القائد « دى بورمون » قد وعد فى « تصريح 5 جويبلة 1830 » بعد استيلائه على مدينة الجزائر باحترام دين الجزائريين وعاداتهم وممتلكاتهم ، فكشف الغطاء عن نواياه عندما استقبل المرشدين العسكريين بمناسبة الاحتفال الدينى الذى انتظم بعد انتصاره فقال : « قد فتحتم من جديد معنا باب المسيحية فى افريقيا ، ورجاؤنا أن تزدهر فيها عما قريب الحضارة التى كانت قد انطفأت بها » (1) . وقد أكد أحد المرشدين العسكريين وهو « الابى » دو بيجير » أن مرشدى الجيش جاؤوا ليحتلوا هم أيضا افريقيا هذه باسم الانجيل » (2) .

وقال « لويس فويو » ، كاتب « بيجو » ، سنة 1841 ، فى كتاب له : « ان الجزائر ممتلكة مسيحية ولن تكون تونس والمغرب مثلها قبل زمن طويل » (3) . ثم أضاف : « ان العرب لن يكونوا لفرنسا الا اذا صاروا فرنسيين ، ولن يكونوا فرنسيين الا اذا تنصروا » (4) . وفى مقالة نشرت سنة 1846 ، شرح أحد الضباط الفرنسيين الذى لم يذكر اسمه لماذا يجب تطبيق سياسة التنصير فقال : « ان تعصب المسلمين هو الامر الحقيقى الذى يدعم المقاومة التى نواجهها فى افريقيا ، وهذا الدين (الاسلام) الذى احترمناه الى يومنا هذا نقترح الآن بجرأة محاربته ، وهكذا نثبت قوتنا وننشر طقوسنا على أنقاض الاسلام » (5) . ومعنى هذا كله أن الاسلام قد قاوم الاحتلال الفرنسى فرأى المستعمرون ازالة هذا الدين خدمة لمصلحتهم . وأبدى أسقف الجزائر السيد « دو بوش » أن « وجود الاسلام قد انتهى وبعد نصف قرن لن يبق له أثر الا عند الهمجيين وستبعث به أوروبا الى الصحارى التى لجأ اليها لينقرض هناك . وهكذا ستستكمل مشروعها التى بدأت فى تنفيذه أثناء الحروب الصليبية » (6) . أما الاسقف الذى

تولى الامر بعد « دو بوش » وهو السيد « بافى » فقد رأى من واجبه محاربة القرآن وتنصير المسلمين (7) · وهكذا تتضح فكرة المستعمرين أن احتلال الارض لا يكفى وأنه يجب محاربة دين السكان وتحويلهم الى نصارى · فتتحول الجزائر المسلمة الى أرض فرنسية مسيحية ·

2 ـ آراء لافيجرى الاساسية :

كان لافيجرى قد تشبع بهذه الآراء الاستعمارية قبل أن يتولى رئاسة الكنيسة فى الجزائر وقد عين فى هذا المنصب بتزكية من الوالى العام الماريشال « ماك ماهون » ، الا أنه سينشب بينهما الخلاف فيما بعد · ان لافيجرى أظهر عداوته للاسلام مثلما فعل الذين سبقوه فقال سنة 1860 : « انه من الواجب علينا أن نعدل عن الاخطاء التى ارتكبناها فى الماضى ، فيجب ألا نحصر (الشعب الجزائرى) فى حضيرة القرآن كما فعلنا ذلك مدة طويلة » · فاقترح تنصير الجزائريين أو ابعادهم الى الجنوب (8) فقال : « يتعين على فرنسا اما أن تقدم (للشعب الجزائرى) ـ بل انى أخطأت التعبير ـ يتعين عليها أن تفسح لنا المجال لنقدم له الانجيل واما عليها أن تطرد هذا الشعب الى الصحارى بعيدا عن العالم المتمدن » (9) ·

وفى رسالة أخرى بين سبب هذه السياسة ، وهو مقاومة الجزائريين ضد الاحتلال الاجنبى فقال : « ان القضية فى جوهرها كما أكدنا على ذلك مرارا هي قضية هذا الدين الذى وقف أمامنا فى غزو الجزائر نهائيا » (10) · ولهذا الغرض أسس لافيجرى جمعية لنشر الدين المسيحى ثم أسس جمعية المبشرين الذين يرتدون اللباس العربى وهم «الآباء البيض» سنة 1874 ·

وقد أخطأت الادارة الفرنسية فى نظر لافيجرى لانها احترمت الاسلام ومؤسساته ، فطالبها بالتخلى عن مساعدة المساجد والمدارس الاسلامية التى تثبت « تعصب الاهالى » · فيجب أن تمنع هذه الادارة تعليم القرآن وتسهيل آداء فريضة الحج (11) · وتناسى الاسقف أن الحكومة الفرنسية قد استولت سنة 1843 على الاوقاف الاسلامية التى كانت تسهر على شؤون المساجد والمشاريع الخيرية ·

وتسهيلا لادماجهم رأى لافيجرى أن تمنح أراضى للجزائريين المتنصرين ، ولم يوافق طبعا على سياسة « الاحترام» لانها كانت تبحث عن معاملة الاهالى فى ظل القرآن وكان يعتقد ان المسلمين لا يمكن أن يتصوروا المستعمرين الا فى شكل « كلاب مسيحيين » على حد تعبيره ، فيجوز لهم أن « يذبحوهم ويرموهم فى البحر » (12) · وحق الكنيسة ـ فى تنصير الاهالى كان يبرره ـ فى نظره ـ تخلف الاسلام الذى تسبب فى « انحطاط الشعب العربى من الناحية الاخلاقية » (13) ولهذا كان

من الضرورى ابعاد هذا الشعب عن الاسلام حتى يعود الى ما كان عليه قبل القرن السابع الميلادى أي قبل الفتح الاسلامى (14) · وسعى لافيجرى أيضا أن يتولى التبشير فى تونس بعد احتلالها سنة 1881 ، فعين أول أسقف فى افريقيا وكان له مقر بقرطاجة قريبا من تونس ، غير انه لم يكتف بهذا النشاط فى الجزائر وتونس وانما دفعه الطموح الى مواصلة التبشير فى القارة الافريقية كلها ، وكان السبب فى ذلك أن الاسلام قد انتشر فى هذه القارة بصفة ملحوظة بحيث ان عدد المسلمين فيها بلغ خمسين مليونا خلال قرن واحد · فكان لابد من وضع حد لانتشار الاسلام · ووافقت روما الاسقف على ذلك وعينته « كاردينال » تقديرا لعمله التبشيرى (سنة 1882) ·

3 ـ نشاطه التبشيرى :

ا) قضية اليتامى الجزائريين : شملت مجاعة كبيرة القطر الجزائرى ما بين 1866 و 1868 (17) فاغتنم لافيجرى هذه الفرصة ليجمع عددا من اليتامى الجزائريين بموافقة السلطة العسكرية · وطلب مساعدات مالية من المواطنين الفرنسيين وبعض المؤسسات ليبنى ملجأ لهؤلاء اليتامى وقرر أيضا أن « يعمدهم » وأن يربيهم تربية مسيحية وأن ينشىء لهم قرى فلاحية بعد رشدهم · الا أن الوالى العام « ماك ماهون » لم يقبل هذا المشروع وعارضه تخوفا من غضب الاهالى ومقاومتهم العنيفة له · فحذر الاسقف قائلا : « اذا علم الاهالى بواسطة الصحافة أنكم تريدون تنصيرهم بالقوة أو ابعادهم عن بلادهم ، أفلا يقولون بأنكم تريدون اغتنام هذه الفرصة التعيسة التى يعانون منها ليضحوا بدينهم فى مقابل الخبز الذى قدمتموه لهم ؟ » · فرد لافيجرى بعنف على رسالة « ماك ماهون » قائلا : « ان هؤلاء الاطفال هم لى ، لان النفس التى هي فيهم أنا الذى حافظت لهم عليها ، اذن فان القوة وحدها هي التى يمكن أن تأخذهم من مآويهم » · (18) وفى الواقع أن الاولياء لم يطلبوا أطفالهم الذين أستولى عليهم لافيجرى وذلك لانهم هلكوا عن آخرهم · وكانت أعمار اليتامى تتراوح بين الثامنة والعاشرة وبلغ عددهم 1753 طفلا فى أول الامر ، الا أنهم ماتوا بسبب المجاعة والتعب فبقى منهم 700 طفل وزعهم لافيجرى بين عدة ملاجىء · وفى سنة 1870 ، بعث بعدد منهم الى روما حيث تم « تعميدهم » ويصعب علينا أن نتصور تعصبا أعظم من هذا وعداوة أكثر صلابة المسلمين الذين لم يراع الا الاسقف شعورهم اطلاقا ·

ب ـ انشاء القرى المسيحية :

قرر لافيجرى انشاء مراكز فلاحية لليتامى الذين نصرهم وبين الغرض من ذلك فى رسالته المؤرخة بـ 6 أبريل 1878 فقال : « سنجد فيها (فى هذه

القرى) بعد سنوات قليلة مجموعة كبيرة من العمال المفيدين الذين يساندون تعميرنا ويصيرون أصدقاء لنا أو بعبارة أخرى سنجد عربا مسيحيين » ·

وفى سنة 1869 ، اشترى الاسقف لافيجرى بعض الاراضى فى وادى شلف لينشىء قريتين لفائدة اليتامى المسيحيين · وشيد سنة 1872 ، قرية « سان سيبريان » تخليدا لاسقف قرطاجة السابق · وقد اختار هذا المكان لانه وجد فيه آثار كنيسة قديمة (20) · وأقام فيه 26 أسرة بعد ما زوج اليتامى الذين بلغوا سن الرشد · ومنح لكل اسرة 20 هكتارا صالحة للزراعة ومنزلا يتالف من غرفتين أو ثلاث غرف ومنحها تسبيقا من النقود أو من المواد الزراعية · وقد بنيت القرية حول الكنيسة ، ويوجد فى مدخلها بستان جماعى واسطبل يأوى الحيوانات فى المساء (21) · غير انه لم تكن الاراضى ملكا لكل اسرة ، ولكنها أجرت لها بثمن رمزى · وبهذه الطريقة ظل الفلاحون خاضعين لسلطة المبشرين ·

ثم أسس الاسقف القرية الثانية بعد الاولى بقليل ، وسماها « سانت مونيك» تخليدا لام القديس أوغسطين ، وتكونت القرية من 24 أسرة · ومن ضمن العائلات ، نجد عائلات « فرانسوا بن عيسى » و « جان الشريف » الذين كانوا يعيشون أولا فى « سانت أوجين » قريبا من بوزريعة (22) · وأقامت « الاخوات البيض » فى القرية واعتنين بالتعليم والتطبيب · وفى سنة 1876 ، أنشأ لافيجرى مستشفى « سانت ايليزابيت » بالقرب من القريتين ، وشيده بحضور شخصيات مدنية وعسكرية (23) وأعجب قنصل بريطانيا بلافيجرى الى أن شبهه بالقديس أوغسطين (24) واشتغل الفلاحون بالزراعة والرعي ، كما انهم اشتغلوا بالصناعات المحلية التى يحتاج اليها سكان القرية من نجارة واصلاح العربات والحديد ··· وأنشئت كذلك بعض الدكاكين للتغذية العامة · ولم يختلط سكان القريتين بالمعمرين المسيحيين ولا بالجزائريين المسلمين · وكان لافيجرى يخشى عليها عادات المسيحيين السيئة كما كان يخشى من المسلمين ان يضطهدوهم أو أن يجلبوهم للاسلام (25) وهذه العزلة المفروضة على سكان القريتين كانت لابد أن تؤدى الى فشل المشروع طال الزمن أم قصر · وقد اعتنى « الآباء » و « الاخوات البيض » بتعليم اليتامى وتربيتهم الدينية وكانت تجمعهم الصلاة كل يوم بالسكان فى كنيسة القرية ·

واقتصر تعليم الاطفال على المبادىء الاولى من قراءة وحساب ونشر « الوطنية الفرنسية » · قال لافيجرى : « بينما كان الفلاحون يشتغلون فى القرية ، كان اثنان من المبشرين يقومان بتعليم بعض الاطفال المساكين الذين التقطوهم ··· » (26) ·ولم يكن من الضرورى أن يتجاوز هذا التعليم مستوى

معينا . فرفض الاب الذى اعتنى بتربية « جان بن عيسى » أن يقدمه الى امتحان الشهادة الابتدائية بدعوى انه قد يتعلم أشياء كثيرة غير مفيدة ، وقد يؤدى به نجاحه الى التكبر والتطلع الى شىء آخر غير الزراعة فيضطرب أمره (27) فالغرض من هذا التعليم اذن هو ربط هؤلاء الناس بالارض وجعلهم مساعدين للمعمرين الفرنسيين .

وكان ذلك هو هدف لافيجرى اذ كتب فى احدى رسائله : « هذا هو التأكيد الحل الانسب للقضية الجزائرية الكبرى لانه هو وحده الذى يجعل تحت تصرفنا هذه الآلاف من الايدى العاملة من أجل الاعمال السلمية وقد كانت دائما مستعدة لتحمل السلاح ضدنا (28) وقد لاحظ أحد مترجميه أن « فكرته الاساسية » هي « ادماج الجزائر فى فرنسا عن طريق المسيحية » (29) .

4 ـ فشل لافيجرى :

أراد لافيجرى انشاء قرى مسيحية ولكنه لم يتمكن من تطبيق مشروعه بسبب معارضة الادارة والمستعمرين والجزائريين المسلمين .

1 ـ خشيت الادارة الفرنسية ما قد ينتج عن سياسة التنصير الجنونية هذه . ورفضت انشاء مراكز أخرى لان عجز الجيش عن حمايتها لم يسمح بذلك . ولم يرض « ماك ماهون » بنشوب حرب صليبية فى الجزائر وان كان قد ساعد لافيجرى (30) فى عملياته الاولى فى وادى شلف . ولكن أمام طموحه المفرط عدل عن مساعدته المالية سنة 1874 . وألغى مجلس النواب هذه المساعدة من المزانية وقد بلغت 950 ألف فرنك سابقا (31) .

2 ـ أيد المستعمرون لافيجرى فى أول الامر ضد الحاكم العام « ماك ماهون »، لانهم كانوا يرغبون فى ازالة الحكم العسكرى . ولكنهم عارضوا فيما بعد فكرته فى انشاء قرى مسيحية جديدة . وعبر الطبيب « فارنيه » عن رأيهم اذ من المساعدات المالية التى منحت لليتامى كان نائبهم فى المجلس الوطنى واتهم لافيجرى بأنه لم ينفق الا جزءا قليلا كما انه وزع الاراضى على عدد قليل من الجزائريين المسيحيين وهم معزولون بين المسلمين . فاقترح الدكتور « فارنيه» على مجلس النواب ، أن يوزع المتنصرين بين الاسر الاوروبية ليكونوا فى خدمة المعمرين (32) . ـ 3 ـ أما المسلمون فقد أظهروا عداوتهم لمشروع التنصير منذ البداية احتج السيد ابن على الشريف على رسالة لافيجرى المؤرخة بالسادس أفريل 1968 برسالة وجهها الى نائب الوالى العام فقال : « لقد قرأت رسالة الاسقف المؤرخة بالسادس أفريل الماضى ، والتى يقول فيها انه يريد استبدال القرآن بالانجيل من أجل احياء الشعب العربى . لقد اثرت هذه الرسالة كثيرا فى المسلمين ، اننا نفضل موت جميع أولادنا على تنصيرهم » (33) وبعث 61 من أعيان الجزائر برسالة الى

نابوليون الثالث عبروا فيها عن سخطهم ضد رسالة الاسقف لافيجرى . وفى بلاد قبائل ، أدى تعصب أحد المبشرين الى معارضة السكان بحيث اضطر حاكم القطاع العسكرى للمنطقة أن يطلب من هذا المبشر مغادرة البلاد وذلك خوفا من ثورة دينية . وهجر عدد كبير من أسر تيزى وزو وفور نابليون (فور ناسيونال) الى سوريا سنة 1870 (34) .

وأمام هذه المعارضة كلها وعدم الامكانيات المالية ، أرغم لافيجرى على التخلى عن مشروع انشاء قرى مسيحية أخرى . وتوزع المسيحيون الجزائريون فى البلاد وتوظفوا فى مختلف القطاعات ولم يبق الا 200 ساكن تقريبا فى القريتين المسيحيتين بوادي شلف (35) . ولم يتقبل الاسقف فشله بسعة الصدر واتهم كلل المعارضين بنوايا سيئة . فكتب الى « ماك ماهون » مدعيا انه سيترك لليتامى كل الحرية ، واذا أرادوا أن يظلوا مسلمين عندما يبلغون رشدهم، فسوف لن يمنعهم من ذلك « وسيظل مخلصا وحنونا لهم » (36) . وهذه « الابوية » الغريبة لم تستطع أن تخفى غرضه التبشيرى . وأما المعمرون فانهم عارضوه فى سياسته لانهم كانوا « كفارا » . صحيح أن الدكتور « فارنيه» كان ينتمى الى الاشتراكيين من أنصار « سان سيمون » ولكن موقفه كان موقفا سياسيا اذ كان غرضه تمليك الاراضى للمعمرين الاوروبيين فقط ، لا للجزائريين ولو كانوا مسيحيين .

أما الجزائريون المسلمون ، فقد اتهمهم لافيجرى بكل الاتهامات كما اشرنا الى ذلك . انهم يمثلون « الهمجية » فى نظره ، وشن ضدهم حملات غريبة : « فالاغنياء منهم لا يساعدون اخوانهم الفقراء بل يطردون ويحاربون من يطلبون منهم الخبز » ! (37) . وبلغت به العنصرية الى درجة أنه اتهمهم بأكل الانسان ، فقال : « لا يوجد اليوم فى بعض المناطق، ، منزلا لم يأكل فيه لحم الانسان » ! (38) .

حاول لافيجرى عبثا بهذه الاتهامات الكاذبة أن يغطى الواقع الاليم الذى لم يرد الاعتراف به وهو أن الغزو العسكرى واستلاب الاراضى قد حولا الجزائريين الى بؤس لا يوصف . ولاحظ هذه التعاسة أحد مترجميه السيد « كلاين » سنة 1890 فى ضواحى القرى المسيحية بوادى شلف (39) . وأجمع المؤرخون عن أن هذه السياسة الظالمةالتى تميزت بالسرقة والنهب والتعصب التى جعلت الشعب الجزائرى يقاوم الاستعمار ويثور عليه باستمرار الى ان اندلعت حرب التحرير النهائية .

ماذا تبقى اليوم من القرى المسيحية فى وادى شلف ؟ شىء قليل ، اذا اعتمدنا على دراسة حديثة (40) . فقد غادر المسيحيون الجزائريون بلادنا الى فرنسا سنة 1962 ، حسب ما ذكره الشيخ المهدى البوعبدلى . وفى الختام يمكن القول بأن نشاط لافيجرى قد ترك فى الجزائر ذكريات سيئة الى يومنا

هذا رغم تكيف بعض المبشرين مع ظروف الاستقلال ، فمثلت حركة هذا « الكاردينال » روح الاستعمار الحديث والحروب الصليبية القديمة . ولذا لا يمكن لحركة التبشير أن تنال ثقة المسلمين فى الجزائر ولا فى غيرها من البلاد الاسلامية (41) .

الهوامش :

1 ـ « الابى » دوبيجيز ـ ص 166 ، وكان هذا القسيس مرشدا عسكريا وقد رافق الجيش الفرنسى الذى احتل الجزائر .

2 ـ نفس المصدر ـ ص 28 .

3 ـ لويس فويو ـ ص 13 .

4 ـ نفس المصدر ـ ص 65 .

5 ـ رسالة لضابط فرنسى ـ ص 7

7 ـ الجينرال سبيلمان ـ ص 23

6 ـ شارل اندرى جوليان ـ ص 262

8 ـ شارل اندرى جوليان ـ نفس المصدر ـ ص 440 .

9 ـ رسالة لافيجرى 6 أفريل 1868 .

10 ـ غروسنميير ـ ص 153 .

11 ـ نفس المصدر ـ ص 160 .

12 ـ رسالة لافيجرى 6 أفريل سنة 1868 .

13 ـ شارل أندرى جوليان ـ نفس المصدر ـ ص 440 .

14 ـ لوسور ـ ص 69 .

15 ـ الاستاذ تميمى (عبد الجليل) الحركة التبشيرية فى تونس ـ مجلة الاصالة ـ العدد 30 محرم ـ صفر 1396 هـ ـ جانفى فيفرى 1976 ـ ص 49 ـ 61 .

16 ـ غروسنمييط ـ ص 539 .

17 ـ الاستاذ بوعزيز (يحيى) المجاعة فى الجزائر أواخر عقد الستينات من القرن 19 ـ مجلة الاصالة ـ العدد 33 جمادى الاول 1396 هـ ـ ماي 1976 م ص 7 ـ 29 .

18 ـ الجينيرال سبيلملن ـ نفس المصدر ـ ص 104

19 ـ آني ري ـ غولديغير ـ ص 499 ·

20 ـ غروسنميير ـ نفس المصدر ـ ص 150 ·

21 ـ يـــونس ـ ص 312 ·

22 ـ كـــلاين ـ ص 114 ·

23 ـ نفس المصدر ـ ص 127 ـ 128

24 ـ نفس المصدر ـ ص 128 ·

25 ـ بـــونس ، ص 311 ·

26 ـ غروسنمييـــر ـ ص 154 ·

27 ـ كـــلاين ـ ص 121 ·

28 ـ غرونسمييـــر ـ ص 153 ·

29 ـ غروسنمييـــر ـ نفس المصدر ـ ص 155 ·

30 ـ شارل أندري جوليان ـ ص 440 ·

31 ـ كـــلاين ـ ص 114 ·

32 ـ كلاين ـ نفس المصدر ـ ص 116 ·

33 ـ آني ري غولدزيغير ـ ص 498 ·

34 ـ نفس المصدر ـ ص 500 ·

35 ـ يـــونس ـ ص 313 ·

36 ـ غروسنمييـــر ـ ص 158 ·

37 ـ ريـــن ـ ص 85 ·

38 ـ آني ري ـ غولدزيغير ـ ص 509

39 ـ كـــلاين ـ ص 130 ·

40 ـ البوعبدلي (الشيخ المهدي) ـ الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي مجلة الاصالة العدد 8 ربيع الثاني ـ جماد الاول 1392 هـ ـ ماي ـ جوان 1972 م ـ ص 305 ـ 320 ·

41 ـ نذكر من الاباء البيض خاصة ميشيل لولون (Michel Lelong) الذي نشر كتابا قيما سنة 1975 تحت عنوان « اني لقيت الاسلام » ، كان طالبا في جامعة

الجزائر وعاش مدة طويلة فى تونس وهو اليوم يشــرف على حوار الكنيســة الفرنسية مع الاسلام وفى هذا الاطار ينظم الندوات والملتقيات مع بعض المسلمين وخاصة مع المغتربين المغاربة ·

.L'abbé Dopigez, Souvenirs, 1840

Louis Veuillot : Les Français en Algérie. Tours, 1847

De la conversion des musulmans. Edit. J. Lecoffre. Paris, 1846.

Charles-André Julien : Histoire de l'Algérie Contemporaine. 2e Edit. P.U.F., Paris, 1979.

Général G. Spilmann, Napoléon III et le royaume arabe d'Algérie. Edit. Académie des Sciences d'Outre-Mer. Paris, 1975.

A. Grussenmeyer : Le Cardinal Lavigerie. Edit. Jourdan. Alger, 1888.

P. Lesourd : Les pères blancs.

Annie Rey - Goldzeigner : Le royaume arabe. Edit. SNED. Alger, 1977.

A. Pons : La nouvele Eglise d'Afrique. Edit. Namura. Tunis, 1930.

A.F. Klein : Le Cardinal Lavigerie et ses œuvres en Algérie. Edit. Pouissielgue. Paris, 1890.

L. Rinn : L'insurrection de 1871. Edit. Jourdain. Alger, 1891.